هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَام

عناصر الموضوع

التعريف بهود عليه السلام	٢٣٢
ذكر هود عليه السلام في القرآن الكريم	٢٣٩
حديث القرآن عن قصة هود	٢٤٠
مظاهر انحراف قوم هود	٢٥٢
معالم دعوة هود عليه السلام	٢٥٦
موقف عاد من نبيهم ورده عليهم	٢٦٩
عاقبة القوم ومصيرهم	٢٨٣

التعريف بهود عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

يقول الإمام الطبري رحمه الله معرفا بنسب هود عليه السلام بأنه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح[١].

وقال ابن قتيبة عن وهب: «هو هود بن عبدالله بن رياح بن حارث بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح»[٢].

ثم قال الطبري: «ومن أهل الأنساب من يزعم أن هودا هو عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح»[٣]. وذكره ابن قتيبة على أنه هو المرجح عنده.

والقولان الأول والثاني أوجه من القول الثالث؛ لأن تسميته بما سماه به القرآن الكريم أولى، ولأن الثالث يدل على قرب عهد هود بنوح عليهما السلام، ومثل هذا الزمن القريب يستبعد فيه انتشار الوثنية وعودة الناس إلى الكفر إلى درجة أنهم نسوا ما كان عليه أسلافهم ولم يذكروا إلا أسلافا قد انغمسوا في الكفر، كما أن قبيلة عاد كانت على مستوى من التمكين الذي يقتضي كثرة العدد، ولا يظن أن تكون قد بلغت هذا المبلغ في هذه الفترة الزمنية القصيرة. كما أن هذا القول يخرج نسب هود عليه السلام من قوم عاد ويجعله لا يلتقي معهم إلا في سام بن نوح، والمعلوم أن أخا القوم منهم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

أي: أخوهم في النسب لا في الدين، وأخو القوم واحد منهم، قال الرازي: «واعلم أنه تعالى وصف هودًا بأنه أخوهم ومعلومٌ أن تلك الأخوة ما كانت في الدين، وإنما كانت في النسب، لأن هودًا كان رجلًا من قبيلة عادٍ، وهذه القبيلة كانت قبيلةً من العرب ونظيره ما يقال للرجل: يا أخا تميمٍ ويا أخا سليمٍ، والمراد رجلٌ منهم»[٤].

لهذا فالأمر يدور بين القول الأول والثاني والاختلاف بينهما في اسم الجد الثاني هل اسمه الخلود أم الحارث، ولا يمكن الترجيح بينهما لعدم وثوق المصادر، ولكنهما يقتضيان رجوع نسب هود عليه السلام إلى عاد، وهذا النسب هو المشتهر عند المؤرخين والنسابين

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٢١٦.
(٢) المعارف، ابن قتيبة ص٢٨.
(٣) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٢١٦.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٦٢.

وليس عليه دليل قطعي، إلا أن المقطوع به أنه لا يخرج عن الانتساب إلى نوح عليه السلام الأب الثاني للبشرية لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات:٧٧].

وكان هود عليه السلام رجلا آدم كثير الشعر حسن الوجه[١].

وعاد قبيلة من قبائل العرب التي كانت معلومة للعرب قبل نزول القرآن، «وهي من العرب العاربة ومنهم عادٌ وثمود وطسمٌ وجديسٌ وأميمٌ وجرهمٌ والعماليق وأممٌ آخرون لا يعلمهم إلا الله كانوا قبل الخليل وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وفي زمانهم أيضًا»[٢].

وسميت عاد نسبة إلى جدها فهي تنتمي إلى عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح، وهي عاد الأولى[٣].وأما قبائل ثمود وطسمٌ وجديسٌ وأميمٌ وجرهمٌ والعماليق فتنتمي إلى لاوذ بن إرم بن سام بن نوح[٤]، ومع أن هذه القبائل أقرب إلى نوح عليه السلام في سلسلة النسب إلا إن الإخباريين يقدمون عادا في الذكر، يعلل ذلك الدكتور جواد علي فيقول:« ولكن الإخباريين يقدمون عادًا على غيرهم، ويبدؤون بهم، وهم عندهم أقدم هذه الأقوام، ويضربون بهم المثل في القدم. ومثلهم في ذلك مثل إخباريي العبرانيين الذين عدوا العمالقة أول الشعوب. ولعل هذه النظرية تكونت عند الجاهليين من قدم عاد وثمود وشهرتهما، وتعزز ذلك من كثرة ورود اسم عاد وثمود في القرآن الكريم واقترانهما في سور عديدة، ولهذا صاروا إذا ذكروا «عادا» ذكروا «ثمودا» بعدها في الترتيب. لذا قدما على بقية الأقوام[٥].

وقد لفت الطبري النظر إلى عدم ذكر عاد عند أهل الكتاب إذ قال: «فأما أهل التوراة، فإنهم يزعمون أن لا ذكر لعاد ولا ثمود ولا لهود وصالح في التوراة، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم»، ثم قال:« ولولا كراهة إطالة الكتاب بما ليس من جنسه، لذكرت من شعر شعراء الجاهلية الذي قيل في عادٍ وثمود ما يعلم به صحة ذلك»[٦].

وقد استدل الإمام الرازي على أن أخبار العرب البائدة والأمم القريبة من بلاد العرب كانت مشهورة متداولة عند العرب، بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر:٦]:أي:« ألم

(١) المعارف، ابن قتيبة ص٢٨.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ١٨٧.
(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك الطبري ١/ ٢١٦.
(٤) انظر: جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي ١/ ٤٦٢.
(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ١/ ٢٩٩. بتصرف.
(٦) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٢٣٢.

تعلم لأن ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول وإنما أطلق لفظ الرؤية هاهنا على العلم لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر! أما عاد وثمود فقد كانا في بلاد العرب وأما فرعون فقد كانوا يسمعونه من أهل الكتاب، وبلاد فرعون أيضًا متصلة بأرض العرب وخبر التواتر يفيد العلم الضروري، الذي يجري مجرى الرؤية في القوة والجلاء والبعد عن الشبهة، فلذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى: ألم تعلم»[1].

ومما يؤكد عدم علم أهل الكتاب بأخبار العرب «أن المسلمين حينما راجعوا اليهود يسألونهم عن عاد وأمثالهم، أخبروهم بعدم وجود ذكرهم في التوراة. والواقع أن التوراة لا علاقة لها فيهم؛ فأحاديث عاد وثمود وهود وصالح إنما هي أحاديث عربية، توارثوها وتحدث بها الجاهليون، وليس لها ذكر في كتب يهود، ولكن أهل الأخبار ربطوا مع ذلك بينها وبين التوراة، وأوجدوا لها صلةً ونسبًا[2].«وكانت عاد ثلاث عشرة قبيلة، ينزلون الرمل، وبلادهم أخصب البلاد»[3].

ثانيًا: مكانه وزمانه:

المكان والزمان حيزان ضروريان من لوازم الأحداث التي تجري في عالم الإنسان، لأن حياة الإنسان محكومة بالزمان والمكان، ولكن إظهار ذلك وذكره في القصة القرآنية يدور مع الغرض منه. وقد يبينه القرآن بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ولا سبيل إلى تحديد القرن الذي بعث فيه هود عليه السلام ولا الزمن الذي كانت به عاد تعمر الأرض، بلغة الأرقام لعجز المصادر التاريخية عن ذلك، وتجدد التواريخ الرقمية بين الأمم ونسبيتها، فكل أمة تؤرخ بحدث بارز في تاريخها، وأما مصادر أهل الكتاب مع عدم الثقة بها لما لحقها من التحريف والتبديل فإنها لم تتعرض للحديث عن الأمم التي لا صلة لهم بها، والمصدر الوحيد الذي يركن إليه فيما غمض من تاريخ البشرية هو القرآن الكريم، مع أنه ليس كتاب تاريخ يقصد إلى تأريخ الأحداث بقصد التأريخ فهو كتاب هداية وإرشاد.

ولكن ذلك لا يمنع أن يذكر الأحداث التي تهدف إلى الهداية والعبرة مقترنة بأزمنتها محددا لأوقاتها فهو تنزيل ممن يعلم السر وأخفى، والقرآن الكريم لا يلتزم طريقة محددة

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٥٢.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ١/ ٢٩٩. بتصرف.
(٣) المعارف، ابن قتيبة ص٢٨.

في ربط الأحداث بأزمنتها فقد يكون ذلك تصريحا أو تلميحا[١]، كأن يربط الأحداث برباط نسبي كما أخبرنا عن زمن قوم عاد بقوله على لسان هود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

وهذا التعبير يؤدي أغراضا منها؛ التذكير والعبرة[٢] ومنها التحديد الزماني من حيث أنهم جاءوا بعد قوم نوح أي: «فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم، لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها»[٣]، ومن الطبيعي أن يكون ذلك بعد أجيال مضى أولها على الإيمان والصلاح من ذرية نوح عليه السلام ومن نجا معه في السفينة، ومضت أجيال حتى ذهبت معالم رسالة نوح عليه السلام وخلفهم خلوف ظهر فيهم الكفر وعبادة الأصنام، وجاءت أجيال لم يعرفوا إلا هذه الأصنام حتى قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الشعراء:١٣٧].

فلما درست معالم رسالة نوح عليه السلام واحتاجت البشرية إلى من يردها عن الضلال ويهديها إلى الله. وكانت عاد هي القوة المتمكنة ذات النفوذ والسلطان، التي استخلفت في الأرض بعد قوم نوح عليه السلام، عندها أرسل الله تعالى هودا عليه السلام في وسط هذه البيئة التي تمثل في عصرها قمة الحضارة المادية في الأرض.

والمكان كذلك من لوازم الحدث ولكن لا يلتزم القرآن ذكره «إلا إذا كان للمكان وضع خاص يؤثر في سير الحدث أو يبرز ملامحه أو يقيم شواهد العبرة والعظة منه»[٤].

أما مكان عاد فقد صرح القرآن به في قوله تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١].

والأحقاف على قول ابن كثير: «جبال الرمل، وكانت باليمن بين عمان وحضرموت، بأرضٍ مطلةٍ على البحر يقال لها الشحر، واسم واديهم مغيثٌ»[٥].

وقال الحموي: «الأحقاف: جمع حقف من الرمل. والعرب تسمي الرمل المعوج حقافا وأحقافا، واحقوقف الهلال والرمل: إذا اعوج، فهذا هو الظاهر في لغتهم[٦] والأحقاف المذكور في الكتاب العزيز: واد بين عمان وأرض مهرة قال ابن إسحاق: الأحقاف رمل فيما

(١) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب ص٨٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه، عبدالكريم الخطيب ص٩٢.
(٥) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٢٠.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٥٢.

بين عمان إلى حضرموت، وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن، وهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى»[١]. أي: أنها تلتقي بمعنى الرمل المعوج وإن اختلفت الأماكن.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن ﴿إِرَمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر:٧]» اسم موضع، فقالوا: إرم مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن، وقال محمد بن كعب: هي الإسكندرية، وقال سعيد بن المسيب والمقري: هي دمشق، وكذا قال مالك بن أنس بلغني أنها دمشق رواه عنه ابن وهب. وهذان القولان ضعيفان. لدلالة المعنى اللغوي على أن الحقف: ما التوى من الرمل، وليس كذلك دمشق ولا الإسكندرية[٢]. وإنما يستند أصحاب هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ الدال على وجود أعمدة، وما في كل من المدينتين من أعمدة أثرية، ولا أرى هذا كافيا لتحديد المكان لكثرة المدن الأثرية التي تكثر فيها الأعمدة. هذا مع احتمال أن تكون ذات العماد صفة ل إرم نفسها والمراد: ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة[٣]، وأما أن تكون مدينة عظيمة كانت في اليمن ولا تزال آثارها موجودة في هذا الوقت فقريب من حيث موافقتها لمعنى الأحقاف وهو ما التوى من الرمل، وقد يكون بين عمان وحضرموت على ما هو المشهور عند المفسرين، ويتعزز ذلك إذا كانت لهم بقايا آثار من المباني التي كانوا يشيدونها على ما شرف من الأرض تدل على أماكن سكناهم وتكون آية على ما حل بهم لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت:٣٨].

وعلى ما ذهب إليه أكثر المفسرين من أن ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيانٍ لعادٍ[٤] فهو تسمية للقبيلة باسم جدها. ولا تعارض بين ذلك وبين أن تكون إرم اسما لمدينتهم على قول السدي: «إن إرم بيت مملكة عادٍ»[٥]

فيكون التقدير: (أهل إرم)، أو أن تكون المدينة سميت باسم جدهم. أما المدينة التي يذكرها ابن الجوزي في زاد المسير[٦] فلا يعول على خبرها، إذ لو كان لها وجود على

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي ١/ ١١٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٧٧، إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس ٥/ ١٣٧.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٣٣٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٥. وقال: وهذا قولٌ حسنٌ جيدٌ قويٌ.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٤١- ٤٤٢.
وقد أعرضت عن ذكرها لعدم ثبوتها فهي مروية عن عبد الله بن قلابة ولم أجد له ذكرا في كتب

تلك الصفة لاشتهر أمرها وما خفي حالها، ولكانت معلما سياحيا يؤمه الناس من كل مكان[1].

ولا بد أن تكون لهم بقايا من المعالم والآثار التي حل عليهم بها العذاب لتكون شاهدة على ما حل بهم كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت:٣٨].

قال المفسرون: «يعنى ما وصفه من إهلاكهم من جهة مسكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها»[2]، وذلك لظهور آثار العذاب؛ «خرابها وخلاؤها منهم بوقائعنا بهم، وحلول سطوتنا بجميعهم»[3]، وكانت معلومة حيث «كان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها»[4]، أي: أن لهم آثارا من المساكن والمباني التي تعد اليوم من المواقع الأثرية.

وذكر المؤرخون «عن «بطلميوس» أن قوم «عاد»، كانوا يسكنون في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب في منطقة «حسمي»، أي: في أعالي الحجاز، وعلى مقربة من مناطق ثمود[5]، وقالوا: إن المكان الذي ورد عند «بطلميوس»، وهو «إرم»، أو «إرم ذات العماد». ويقال له الآن «رم» وقد أظهرت الحفريات التي قام بها «المعهد الفرنسي» في القدس، تأييد هذا الرأي؛ إذ ورد في الكتابات «النبطية» التي عثر عليها في خرائب معبد اكتشف في «رم» أن اسم الموضع هو «إرم». فيتضح من ذلك أن هذا الموضع حافظ على اسمه القديم، غير أنه صار يعرف أخيرًا بـ«رم» بدلا من «إرم».

وفي سنة ١٩٣٢ قام هورسفيلد من دائرة الآثار في المملكة الأردنية الهاشمية بحفريات في موضع جبل «رم»، ويقع على مسافة (٢٥) ميلا إلى الشرق من العقبة، ويقع المكان الذي بحث فيه عند وادٍ، وعلى مقربة منه «عين ماء»، ووجد في جانب الجبل آثارًا جاهلية قديمة. وقد حملت اكتشافاته هذه واكتشافات «سافينياك» واكتشافات كليدن على القول: إن هذا

التراجم والرجال، وابن منبه يكثر من الإسرائيليات، ويعزز ذلك قول ابن كثير: فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك» ثم قال بعد أن أشار إلى هذه القصة: فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يقطع بعدم صحته». تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٦.

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ص١٢٠.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٥٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠ / ٣٤.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٥٤.
(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ١/ ٣٠١- ٣٠٥.

المكان هو موضع «إرم» الوارد ذكره في القرآن، والذي كان قد حل به الخراب قبل الإسلام، فلم يبق منه عند ظهور الإسلام غير عين ماء كان ينزل عليها التجار وأصحاب القوافل الذين يمرون بطريق الشام-مصر-الحجاز»[1].

وهذا القول يتوافق مع ما نسبه بعض المفسرين إلى ابن عباسٍ والضحاك من القول بأن الأحقاف: جبلٌ بالشام[2].

ولعل هذا القول هو الأقرب للواقع لأسباب منها التوافق في المعنى اللغوي فالجبال المجاورة لجبل رم رملية يصدق عليها معنى الأحقاف، ولقربها من ديار ثمود الذين اقترن ذكرهم بعاد في كثير من الآيات، ولذكر ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وناهيك به مرجعا، وللتوافق في الاسم مع المذكور في القرآن الكريم. كما أن مخالفة من يعتد برأيهم للقول الأول كابن عباس والإمام مالك وابن وهب ومحمد بن كعب يدل على عدم القطع به وإن اشتهر بين المفسرين، فمرد شهرته روايته عن ابن اسحق واشتهار كتبه لكونها في بداية عصر التدوين وتعويل من بعده عليها.

(١) المصدر السابق ١/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان الطبري ٢٢/ ١٢٣، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٦، رقم ١٨٥٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٠٤.

ذكر هود عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر هود عليه السلام في القرآن الكريم (٧) مرة، في (٣) سور.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٦٥-٧٢
هود	٥٠-٥٨
الشعراء	١٢٤-١٤٠

حديث القرآن عن قصة هود

لم يرد ذكره عليه السلام منفصلًا، بل بسياقات متصلة مع ذكر قومه، كان بعضها بإشارات سريعة، وبعضها بتفصيلات متفاوتة تختلف من سورة إلى سورة، يكمل بعضها بعضا، وبعضها بتعقيبات خاطفة تشير إلى نتائج وخلاصات أو اعتبار، وكل نجم منها جاء متلائما مع سورته متسقا في سياقه، وإليك بيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الآيات التي تحمل الإشارات:

أما الإشارات السريعة؛ وهي التي تعطي ملامح موجزة عن القوم وتمهد وتشوق للتفصيل عن أخبارهم، فكانت في سور الفجر والنجم و(ق) والفرقان والعنكبوت، ففي سورة الفجر يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر:٦-٨].

وفي سورة النجم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم:٥٠-٥٢].

وفي سورة (ق) قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق:١٢-١٤].

وفي سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾ [الفرقان:٣٥-٣٩].

وفي سورة العنكبوت قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت:٣٨].

ثانيًا: الآيات التي تحمل التفصيلات:

وهي الآيات التي حملت لنا زخما من أخبار القوم، وجاءت تحمل الكثير من التفاصيل لأحداث القصة، وقد وردت في سور عديدة تعطي بمجموعها الصورة المتكاملة لقصة القوم، مع ملاحظة أن كل نجم من هذه الآيات ورد في سورته متناسبا مع موضوعها متوافقا مع سياقه، وهذه السور هي الأعراف، وهود، والشعراء، وفصلت، والأحقاف، وفي سورة المؤمنون على اختلاف اقوال المفسرين فيمن تتحدث عنهم كما سيأتي بيانه، كما وردت آيات

تحمل التفصيل لنهاية القوم وصورة العذاب الذي حل بهم في سور الذاريات، والقمر والحاقة.

ففي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف:٦٥-٧٢].

هذه السورة تعالج موضوع «العقيدة من حيث مساره التاريخي في الحياة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها وفي هذا المدى المتطاول تعرض موكب الإيمان الكريم من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ. يواجه بها البشرية جيلا بعد جيل، وقبيلا بعد قبيل.

ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة»[1].

وجاءت قصة هود عليه السلام مع قومه بعد الفراغ من ذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه وما حل بهم من العذاب، ثم تبعتها قصة كل من صالح ولوط وشعيب عليهم السلام مع أقوامهم، مشكلة حلقة مهمة من الحلقات الكبرى في تاريخ البشرية مع أنبيائها كما وعد الله تعالى بإرسالهم آمرا بني آدم باتباعهم محذرا من مخالفتهم وعصيانهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٤٤، بتصرف.
وانظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ٣/ ٣.

﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

[الأعراف:٣٥-٣٦].

وقد جاءت كل قصة منها باختصار، ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى من القرآن في سياق يتطلب تلك التفصيلات، ذلك لأن الهدف هنا هو تصوير المعالم الأساسية لمسار العقيدة من حيث طريقة التبليغ، وطبيعة استقبال القوم لها، وموقفهم منها، وحقيقة مشاعر الرسول، وتحقق النذير وعاقبة كل فريق. وبهذا تكون القصة قد أدت غرضها ودورها في سورتها[1].

وفي سورة الشعراء قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء:١٢٣-١٤٠].

موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعا؛ العقيدة ملخصة في عناصرها الأساسية: توحيد الله، والخوف من الآخرة، والنبوة، ثم التخويف من عاقبة التكذيب، إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين.

ولكنها جاء بأسلوب متميز يحمل من اسمها نصيب؛ يتحدى الشعر والشعراء وما يجيش في النفوس من المشاعر والأحاسيس التي تحمل على الزهو والخيلاء، فإذا كان الشعر خفقة قلب وهمسة خاطر فإن الذي يتأمل هذه السورة الكريمة يجد لها من الخصائص التي تذكي المشاعر وترهف الاحساس ما لا يجده لعيون الشعر[2].

وتهدف إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن، وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا في سبيلها من الظالمين كما ثبت من قبلهم من المؤمنين، ولكن بأسلوبها الذي يتجلى في نبراتها من أولها إلى آخرها في

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٠٨.

(٢) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ص١٨٠.

مجابهة الزهو والخيلاء والكبر وأسبابه عند المكذبين وما تبثه في نفوس المؤمنين من مشاعر رحمة الله بهم وعزة النصر على الكافرين والاعتزاز بالله العزيز الرحيم.

«وجسم السورة هو القصص الذي يشغل ثمانين ومائة آية من مجموع آيات السورة كلها. والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب. والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة، تعبر عن موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة، تلتقي عند هدف واحد ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأغراض»[1].

وحين تحدثت عن قوم عاد أبرزت ما كان عندهم من الزهو والخيلاء ومظاهر القوة والجبروت مع الترف والتمكين الحامل على التكبر والغرور والإعراض واللامبالاة، وكيف آل أمرهم إلى الهوان والذلة والهلاك بقوة عاتية لا طاقة لهم بمقاومتها أو الصمود أمامها.

وفي سورة هود قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: ٥٠-٦٠].

نزلت هذه السورة في مرحلة اشتدت بها المحن على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بعد وفاة أبي طالب فكانت من أحرج الفترات وأشقها في تاريخ الدعوة بمكة، حيث بلغت الذروة في تحدي قريش وتعديها فجاءت هذه السورة تعالج هذه الحال بتثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه على الحق وهذا ما صرحت به السورة في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٨٣.

﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠].

كما جاءت تسري عنه ما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي. وذلك من خلال الحقائق التالية[١]:

استعراض السورة لحركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري كله، من لدن نوح عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم وتقرير أنها قامت على حقائق أساسية واحدة: هي الدينونة لله وحده بلا شريك، والعبودية له وحده بلا منازع والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ. مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء وأن الجزاء إنما يكون في الآخرة وأن حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء، ولا شك أن دعوة هود عليه السلام تشكل حلقة هامة من حلقات هذا التاريخ البشري، وجولة من جولات الإيمان في أعنف صور صراعه مع الكفر.

عرض مواقف الرسل-صلوات الله وسلامه عليهم-ومن بينهم هود عليه السلام وهم يتلقون أشد ما بلغت إليه صور الإعراض والتكذيب، والسخرية والاستهزاء، والتهديد والإيذاء، بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق، وفي نصر الله نجاة المؤمنين، وقد عرضت هذه السورة لأشد ما لقيه هود عليه السلام من قومه حيث أنكروا البينات فقالوا: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وأعلنوا أشد صور الرفض والعناد والاصرار فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، بهذا الأسلوب القاطع، ولم يكتفوا باتهامه بالسفاهة كما في سورة الأعراف، بل زادوا فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ فأدخلوا الحوار إلى أعنف صور التحدي[٢].

توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلالته إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به والتسرية عنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله، وبما أولاهم الله من رعايته ونصره وتوجيهه.

(١) حيث يفهم من زمن نزول هذه السورة التي نزلت في أواخر العهد المكي بعد سورة الإسراء ويونس أنها نزلت في الفترة التي اشتدت بها المحن على النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك بعد وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها.
انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/١٩٣، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/١٨٤١-١٨٤٣.

(٢) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ص٢١٧.

وفي سورة فصلت قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٣-١٦].

وفي سورة الأحقاف قال تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢١-٢٦].

هذه السورة تعالج قضية العقيدة قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه. والإيمان بالوحي والرسالة وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول سبقته الرسل.

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل، وتوقع فيها على كل وتر، وتعرضها في مجالات شتى، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية. كما أنها تجعلها قضية الوجود كله-لا قضية البشر وحدهم-فتذكر طرفا من قصة الجن مع هذا القرآن كذكرها لموقف بعض بني إسرائيل منه. وتقيم من الفطرة الصادقة شاهدا كما تقيم من بعض بني إسرائيل شاهدا سواء بسواء.

ثم هي تطوف بتلك القلوب في آفاق السماوات والأرض، وفي مشاهد القيامة في الآخرة. كما تطوف بهم في مصرع قوم هود وفي مصارع القرى حول مكة. وتجعل من السماوات والأرض كتابا ينطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء.

ويمضي سياق السورة في أربعة أشواط مترابطة، كأنها شوط واحد ذو أربعة مقاطع»[1].

وتشكل قصة عاد الشوط الثالث من هذه السورة حيث يرجع مصرعهم عندما كذبوا بالنذير. ويعرض من القصة حلقة الريح

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٥٢.

العقيم، التي توقعوا فيها الري والحياة فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار، والعذاب الذي استعجلوا به وطلبوه.

«وهذا الشوط جولة في مجال آخر، يخدم القضية التي تعالجها السورة، وتأخذ القلب البشري من جانب غير الجوانب التي عالجها الشوطان الأولان جولة في مصرع عاد ومصارع غيرها وقد وقفوا من رسولهم وأخيهم هود عليه السلام موقف المشركين من رسولهم وأخيهم محمد صلى الله عليه وسلم واعترضوا اعتراضاتهم، وأجابهم نبيهم بما يليق به من أدب النبوة في حدود بشريته وحدود وظيفته. ثم أخذهم ما أخذهم من العذاب المدمر، حين لم يسمعوا النذير. فلم تغن عنهم قوتهم-وكانوا أقوى- ولم يغن عنهم ثراؤهم-وكانوا أغنى-ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم- وكانوا أذكياء-ولم تغن عنهم آلهتهم التي اتخذوها تقربا-بزعمهم-إلى الله»[1].

وبعض السور انفردت بالحديث عن صورة العذاب التي حلت بعاد كما في سور القمر والذاريات والحاقة:

ففي سورة القمر قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر:١٨-٢٢].

وفي سورة الذاريات قال سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

هذه السورة التي حملت صورة تبديد الباطل أمام صولة الحق مهما بدا منتفخا وظهر منتفشا وطغى زبده وطال أمده، فاختصت هذه السورة بذكر الريح العقيم التي حلت بقوم عاد فلا تذر شيئا تأتي عليه إلا بددته وجعلته كالرميم[2].

وفي سورة الحاقة: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة:١-٨].

ومن الملاحظ أن بعض هذه السور تذكر عادا في أمر مشترك مع أمم وقبائل وأقوام، كما في سورة إبراهيم وغافر والحجر وص والتوبة، وفي مواطن تذكر معها ثمود وحدها، كما في سورة فصلت والعنكبوت،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٥.

(٢) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ص٢٢١.

وفي الحاقة ذكرتا معا، ثم فصلت كل منهما بتفصيل يخصها، ويجمع عادا وثمود أنهم من العرب البائدة، وأن ثمود جاءت بعد عاد، فهم خلفاء قوم عاد كما دل على ذلك القرآن، بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف:٧٤].

وفي سور أفردت عاد بالذكر وحدها في حكم يخصها، كما في سور الفجر والذاريات والحاقة.

هل الآيات في سورة المؤمنون تتحدث عن هود عليه السلام مع قومه؟

بعد الفراغ من الحديث عن قوم نوح عليه السلام في سورة (المؤمنون) قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾ [المؤمنون:٣١-٤١].

لم تذكر هذه الآيات اسم النبي ولا القوم الذين أرسل فيهم، وهذا يحتمل ثلاثة أوجه؛

الأول: أنهم عاد ونبيهم هود عليه السلام وذلك لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

وهؤلاء القوم جاءوا بعد قوم نوح عليه السلام، وفي مطلع هذه الآيات بعد الفراغ من الحديث عن قوم نوح يقول: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، كما احتجوا بمجيء قصة هود على أثر قصة نوح في الاعراف وهود والشعراء، ونسبه الزمخشري والرازي لابن عباس وهو قول أكثر المفسرين(١).

الثاني: أنهم صالحٌ عليه السلام وثمود، لأن قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة، وأما عاد فأهلكوا بالريح، وهو قول الطبري، حيث يقول: «وعنى بالرسول في هذا الموضع: صالحًا، وبقومه: ثمود»(٢). وبه قال ابن جزي(٣)، ورجحه ابن عاشور للأدلة المذكورة(٤) ولقوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)﴾ [المؤمنون:٤٠].

مع قوله في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣)﴾ [الحجر:٨٣].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٨٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٧٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩ / ٢٨.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٤٩-٥٠.

فكان هلاكهم في الصباح وللإجابة عن سؤال متوقع لماذا خصهم بالذكر دون عاد وهم الذين جاءوا بعد قوم نوح فقال:« ولعل تخصيصهم بالذكر هنا دون عادٍ خلافًا لما تكرر في غير هذه الآية لأن العبرة بحالهم أظهر لبقاء آثار ديارهم بالحجر كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

كما رجحه الشيخ السعدي فقال: «الظاهر أنهم « ثمود » قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم»[(١)].

وفات هؤلاء العلماء عليهم رحمة الله ما وقع من التشابه في جزء من عقوبة كل من عاد وثمود وهي الصاعقة، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت:١٣]. مع انفراد كل بما اختصت به.

وذكر القرطبي القولين مع دليل كلٍ ثم قال: «وممن أخذ بالصيحة أيضًا أصحاب مدين قوم شعيب، فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلم»[(٢)].وذكر فريق من المفسرين القولين من غير ترجيح[(٣)].

الثالث: جائز أن يكونوا قوما آخرين غير عاد وثمود وذلك لعدم وجود دليل قطعي يرجح أحدهما على الآخر، ولدلالة القرآن على وجود أمم كثيرة لم تذكر أسماؤها في القرآن منتشرين على مر الزمان من لدن نوح عليه السلام إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم:٩].

«قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ نفى العلم بهم، وذلك يقتضي نفي العلم بذواتهم»[(٤)].

وقال:﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٧-٣٩].

«وفي قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ إضافة للكثير من الأقوام الضالين، الذين احتواهم الزمن بين قوم نوح، وبين عاد وثمود وأصحاب الرس فهناك كثيرون من الرسل، قد بعثهم الله سبحانه وتعالى إلى أقوام عديدين، في تلك الحقبة، بين

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٢١.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨٦.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٦٨.

نوح، وبين عاد وثمود وأصحاب الرس وأن هؤلاء الأقوام لم يختلف موقفهم مع رسلهم، عن موقف عاد وثمود وأصحاب الرس، من رسلهم»[1].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

حيث ترك ذكر أمم كثيرة لم يقص خبرها، وأمم لم يتتبع تفاصيل أحداثها، اكتفاء بما ذكر لتشابه المضامين والمقاصد في دعوات الرسل وتشابه المواقف في ردود أقوامهم ونهاياتهم.

وتتتبع هذه السورة بيان موقف الناس على مر الزمن من دعوة الرسل يقول سيد قطب رحمه الله: «ينتقل في هذا الدرس من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، إلى حقيقة الإيمان التي جاء بها الرسل جميعا ويبين كيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التي لا تتبدل على مدار الزمان، وتعدد الرسالات، وتتابع الرسل، من لدن نوح عليه السلام فإذا نحن نشهد موكب الرسل، أو أمة الرسل، وهم يلقون إلى البشرية بالكلمة الواحدة، ذات المدلول الواحد، والاتجاه الواحد، حتى ليوحد ترجمتها في العربية-وقد قيلت بشتى اللغات التي أرسل بها الرسل إلى أقوامهم- فإذا الكلمة التي قالها نوح عليه السلام هي ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين، فتجيب البشرية جوابا واحدا، تكاد ألفاظه تتحد على مر القرون!»[2].

ثم يقول: «إن استعراض قصص الرسل في هذه السورة ليس للتقصي والتفصيل إنما هو لتقرير الكلمة الواحدة التي جاء بها الجميع، والاستقبال الواحد الذي لقوه من الجميع. ومن ثم بدأ بذكر نوح عليه السلام ليحدد نقطة البدء وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة. ولم يذكر الأسماء في وسط السلسلة الطويلة، كي يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية. إنما ذكر الكلمة الواحدة في كل حلقة والاستقبال الواحد، لأن هذا هو المقصود»[3].

ولشدة التشابه بين هذه الأمة وكل من عاد وثمود وقعت الحيرة عند المفسرين بأنها هذه أو هذه. ويميل الباحث إلى ترجيح القول الثالث؛ لأن القرآن لو أراد أن يحدد هذه الأمة على وجه التخصيص لنصب من العلامات ما يقطع ببيان هويتها لو كان الغرض من إيرادها لا يتحقق إلا بذلك، كما أن هذه القصة انفردت بالكشف عن منهج

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ١٠/ ٢٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٦٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٦٦.

المترفين من دعوة الإصلاح، الذين لم يرد التصريح به في قصة كل من عاد وثمود.

ثالثًا: الآيات التي تحمل التعقيبات:

أما التعقيبات ففي سور إبراهيم، وص، والحج، والتوبة.

ففي سورة إبراهيم قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩﴾ [إبراهيم:٨-٩].

حيث يحذر موسى عليه السلام قومه من تكذيب الرسل وما يترتب عليه من عواقب وخيمة، جاعلا ما حل بهذه الأقوام عبرة ومثلا.

وفي سورة التوبة قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٧٠﴾ [التوبة:٧٠].

حيث تعقب هذه الآية من السورة على موقف المنافقين، وتحمل الظالمين مسؤولية ظلمهم في عدم انتفاعهم بالرسل وبيناتهم، وكانت هذه السورة من أواخر السور المدنية نزولا وهي تتحدث في مقطع منها عن المنافقين وتكشف عما تنطوي عليه نفوسهم من الفسق والحرص على الدنيا والغفلة عن الله تعالى، فيفتنون عن مصدر القوة والنعمة الحقيقية، ويحرمون من الانتفاع بسيد الرسل وما جاء به من البينات القاطعة، فيعقب القرآن على موقفهم جاعلًا لهم عبرة فيمن سبق من الأمم.

فإن «هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة، ليست جديدة، ففي تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال. ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز. ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة، بعد ما استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم في هذه الأرض. وكانوا أشد قوة وأكثر أموالًا وأولادًا فلم يغن عنهم من ذلك كله شيء.

والقرآن يذكر القوم بما كان من أسلافهم، ويبصرهم بأنهم يسلكون طريقهم، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم. لعلهم يهتدون ويلتفت السياق من خطابهم إلى خطاب عام، كأنما يعجب من هؤلاء الذين يسيرون في طريق الهالكين ولا يعتبرون»[1].

وفي سورة الحج: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/١٦٧٣-١٦٧٤.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج:٤٢-٤٤].

حيث ذكرت مع مجموعة من الأمم التي كذبت الرسل في سياق التعقيب على موقف قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب ومقاتلة وإخراج للمؤمنين من ديارهم فلم تفلح ووعده بالنصر والغلبة عليهم مسليا له ومعلما بسنة الله في المكذبين في إملائهم ثم أخذهم.

قال الإمام الرازي:« اعلم أنه تعالى لما بين فيما تقدم إخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق، وأذن في مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين أن لله عاقبة الأمور، أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره، فقال: وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الأمم أنبياءهم، وذكر الله سبعة منهم»[1].

وفي سورة (ص) قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص:١٢-١٤].

مبينا التلازم المطرد بين تكذيب الرسل وتحقق العقاب من الله.

هذه هي السور التي تحدثت عن هود عليه السلام أو عنه وعن قومه، وكلها كما ترى سور مكية، وهو الغالب على قصص الأنبياء عليهم السلام باستثناء تعقيبين في سورة الحج التي جمعت بين المكي والمدني، والتوبة المدنية.

ولا يفوتنا أن نذكر ورود ذكر عاد في سورة غافر على لسان مؤمن آل فرعون محذرا قومه من عاقبة تكذيب المرسلين في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر:٣٠-٣١].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٣١.

مظاهر انحراف قوم هود

تحدث القرآن الكريم عن مجموعة من مظاهر الانحراف في قوم هود عليه السلام، والتي منها:

أولًا: تقليد الآباء في عبادة الأصنام:

قال محمد بن إسحاق: «وكان من حديث عادٍ فيما بلغني والله أعلم أنهم كانوا قومًا عربًا، وكانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها من دون الله؛ صنمٌ يقال له: صداءٌ، وآخر يقال له: صمودٌ، وصنمٌ يقال له: الهباء، فبعث الله عز وجل لهم هودًا فأمرهم أن يوحدوا الله، ولا يجعلوا معه إلهًا غيره، وأن يكفوا، عن ظلم الناس»[1].

وقال ابن كثير: «كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة: صدا، وصمودا، وهرا»[2].

فلما دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله تعالى وحده أنكروا عليه أن يدعوهم إلى ما يخالف ما كان عليه آباؤهم وقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حبًا لما نشؤوا عليه، وإلفًا لما صادفوا آباءهم يتدينون به»[3]. ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧٠].

«والمعنى: أجئتنا لأجل أن نعبد الله وحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا معه من الأولياء والشفعاء فنحقرهم ونمتهنهم برميهم بالكفر، ونحقر أولياءنا شفعاءنا عند الله بترك التوجه إليهم عند التوجه إليه وهم الوسيلة، وهو المقصود بالدعاء والاستغاثة بهم التعظيم لصورهم وتماثيلهم وقبورهم والنذر لهم وذبح القرابين عندهم؟ وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا إلا بهم ولأجلهم؟ استنكروا التوحيد، واحتجوا عليه بما أبطله الشرع والعقل من التقليد[4].

ومما يؤكد اتباعهم للآباء في عقيدتهم قول هود عليه السلام: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١].

حيث نسب تسمية الآلهة التي يعبدونها لهم ولآبائهم. وهم من الأمم التي كذبت رسلها جمودا على تقليد الآباء، فلا يقبلون جديدا ولو كان أهدى مما كان عليه آباؤهم، معرضين عن كل حجة ولو كانت مثل وضح

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٠٨، رقم ٨٦٤٦.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ص١٢١.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١٧.
(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٤٣.

الشمس.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾ [الزخرف:٢٣-٢٥].

ثانيًا: الاغترار بالقوة والمال:

قال تعالى مخبرًا عن قول هود عليه السلام لقومه: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣١].

في هذه الآيات يكشف هودٌ عليه السلام عن الأحوال التي كان عليها قومه، منكرا عليهم صنيعهم لما فيها من مظاهر الفساد والعلو والإمعان في الغفلة، وهذه الأعمال وإن كانت في أصلها مشاريع نافعة، ولكن المنكر في تحويلها عن مسارها واستعمالها في غير غايتها وهي ثلاثةٌ:

فأولها قوله: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ الريع: وهو المكان المرتفع، ومنه قوله كم ريع أرضك وهو ارتفاعها[1].

«قال النحاس: ومعروف في اللغة أن يقال لما ارتفع من الأرض ريع وللطريق ريع»[2].أو الفج بين جبلين. والآية: العلم، أو العلامة «وتطلق الآية على المصنوع المعجب لأنه يكون علامةً على إتقان صانعه أو عظمة صاحبه»[3].

والمعنى يحتمل أربعة وجوه:

أحدها: الريع هو المكان المرتفع: عن ابن عباسٍ أنهم كانوا يبنون بكل ريع علما، أي: أنهم يبنون في كل مكان مرتفع مشرف بناء شامخا كالقصر ونحوه فيكون بارزا ظاهرا للسائرين أو للناظرين، ولما كانوا مبالغين في هذا الفعل لكثرته وفشوه فيهم كما يدل على ذلك لفظ: (كل)، وكانوا غير محتاجين إليه كان فعلهم عبثا لا طائل منه لا ينتفع به، فلا يقصد به إلا التفاخر والتعالي.

الثاني: الريع: الطريق، لذا ذهب فريق إلى أنهم كانون يبنون على كل الطرق الواقعة تحت سلطانهم بناء يتخذونه مرصدا للمارة يعبثون فيه بمن يمر في الطريق إلى هودٍ عليه السلام، أو يعبثون بمن يمر في الطريق عموما-وهو الأولى:فيسخرون منهم.

والثالث: أخذ من تغليب معنى: ﴿ءَايَةٗ﴾ وهي العلامة وحملوها على المعالم التي يهتدي بها السائرون فقالوا: إنهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٦٧.

طريقهم أعلامًا طوالًا فكان ذلك عبثًا لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم[1].

ذهب ابن عاشور أن هذه المعالم كانت في الأصل لغرض صحيح ثم تحولت عنه إلى العبث فقال: «فمن سابق أعمال عاد أنهم كانوا بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل السائرون في تلك الرمال المتنقلة التي لا تبقى فيها آثار السائرين واحتفروا وشيدوا مصانع للمياه وهي الصهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصونا وقصورا على أشراف من الأرض، وهذا من الأعمال النافعة في ذاتها لأن فيها حفظ الناس من الهلاك في الفيافي بضلال الطرق، ومن الهلكة عطشا إذا فقدوا الماء وقت الحاجة إليه، فمتى أريد بها رضى الله تعالى بنفع عبيده كانت جديرة بالثناء عاجلا والثواب آجلا»[2].

ثم قال: «فأما إذا أهمل إرضاء الله تعالى بها واتخذت للرياء والغرور بالعظمة وكانوا معرضين عن التوحيد وعن عبادة الله انقلبت عظمة دنيوية محضة لا ينظر فيها إلى جانب النفع ولا تحث الناس على الاقتداء في تأسيس أمثالها وقصاراها التمدح بما وجدوه منها. فصار وجودها شبيها بالعبث لأنها خلت عن روح المقاصد الحسنة فلا عبرة عند الله بها لأن الله خلق هذا العالم ليكون مظهر عبادته وطاعته»[3].

الرابع: بنوا بكل ريع: بروج الحمام دليله: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: تلعبون، أي تبنون بكل مكانٍ مرتفعٍ آيةً علمًا تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها[4].

وإنما صار فعلهم هذا مذمومًا لدلالته إما على السرف، أو على الخيلاء. أقول: وتخصيص البناء ببروج الحمام أخذا من لفظ تعبثون تخصيص بلا مخصص فإن العبث لا يقتصر على اللعب بالحمام.

وثانيها: قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. «والمصانع: جمع مصنع وأصله مفعلٌ مشتقٌ من صنع فهو مصدرٌ ميميٌ وصف به للمبالغة، و«الصنع: إجادة الفعل ويعبر عن الأمكنة الشريفة بالمصانع»[5].

والمصنع ما يصنع لجمع الماء نحو البركة والصهريج والمصنعة بالهاء لغةٌ والجمع مصانع[6]. فقيل: «هو الجابية المحفورة في الأرض»[7].،وقيل «المصانع مآخذ الماء،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٢٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٣.
(٥) المفردات، الراغب ص ٤٩٣.
(٦) المصباح المنير، الفيومي ٣/ ٣٤٨.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٦٧.

وقيل: مآخذ للماء ومجاري تحت الأرض أو برك الماء، وهذه المعاني كلها تتعلق بالماء جمعا وتخزينا وتوزيعا. وقيل القصور المشيدة والحصون المحكمة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد»[1].

ويبدو كذلك من قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ إذا حملنا معنى مصانع على مدلولها اللغوي دون تخصيصها بما يتعلق بالمياه فإن عادا كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا يستحق أن يذكر حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور، وتشييد العلامات على المرتفعات وحتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشؤونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت، ووقايتهم من مؤثرات الجور ومن غارات الأعداء[2].

وإنما صار هذا الفعل مذمومًا لدلالته على الأمل الطويل والغفلة التامة عن الآخرة مع الإقبال على الدنيا ونسيان أنها دار ممرٍ لا دار مقرٍ.

وثالثها: قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، «البطش: التناول عند الصولة. والأخذ الشديد في كل شيء: بطش به»[3]. و«أصل الجبر: إصلاح الشيء بضرب من القهر، يقال: جبرته فانجبر واجتبر والإجبار في الأصل: حمل الغير على أن يجبر الآخر لكن تعورف في الإكراه المجرد والجبار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم، كقوله عز وجل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم:٣٢].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢].

وقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

أي: متعال عن قبول الحق والإيمان له»[4].

فهود عليه السلام يخاطب قومه في هذه الآية زاجرا لهم عن فعل مذموم في طريقة استعمال القوة التي تميزوا بها، قال الرازي:« بين أنهم مع ذلك السرف والحرص فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين، وهذا الوصف في العباد ذم وإن كان في وصف الله تعالى مدحا فكأن من يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بأن بطشه بطش جبار[5]. والمعنى: أنكم إذا بطشتم بآلة من آلات

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٠٩.
(٣) العين، الفراهيدي ٦/ ٢٤٠.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٨٤.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣.

الضرب كسوط أو سيف كان ذلك ظلما وعلوا لا رحمة فيه، استجابة لأتفه دواعي الغضب. مع المبادرة والتعجيل دون إنظار ولا إمهال ولا تثبت في استحقاق المبطوش به، ولا تفكر في العواقب[1]. وذلك لفرط قوتهم واستهانتهم بالضعفاء من الخلق.

«وحاصل الأمر في هذه الأمور الثلاثة أن اتخاذ الأبنية العالية، يدل على حب العلو، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو، فيرجع الحاصل إلى أنهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الإلهية، وهي ممتنعة الحصول للعبد، فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية، وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية»[2].

وهكذا يضع هود عليه السلام يده على العلل الجوهرية لفساد القوم وضرورة معالجتها.

معالم دعوة هود عليه السلام

جاءت دعوة هود عليه السلام واضحة المعالم، مكتملة الأصول والفروع، متناسبة مع حال قومه، تعالج واقعهم، وتحمل الدواء الكافي والملائم لعللهم ومظاهر فسادهم، كما كان هود عليه السلام متصفا بصفات تؤهله لمواجهة ما بلغه قومه من العتو والتكبر، وما هم عليه من قدرات عقلية جعلتهم على مستوى عال من القدرة على المناظرة والمحاجة، ولا شك أن الله تعالى أعده وأهله لهذه المهمة الخطيرة؛ فإن النبوة اصطفاء وإعداد رباني، من لوازمها الفطنة والذكاء، ولا يكلف الله تعالى إلا من اصطفاه وأعده ليكون على قدر الموقع الذي وضعه الله تعالى فيه.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

ويمكن أن نبين معالم دعوة هود عليه السلام وأصولها وفروعها وأسلوبه في الدعوة، وقدرته على أداء رسالته من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الدعوة إلى الإيمان بالله وحده:

أرسل الله تعالى إلى عاد أخاهم هودا فهو واحد من أنفسهم! مطلع على واقعهم بصير بأعمالهم وابن بيئتهم ليفهموه، ويفهم منهم، فيكون أقدر على معالجة أحوالهم.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣.

فهم يعرفونه ويعرفون شمائله وأخلاقه، فيكون ذلك أدعى إلى تصديقه[1].

وقد بنيت دعوته عليه السلام على أسس عقائدية ثلاثة هي التي قامت عليها جميع رسالات الأنبياء وهي:

١. الدعوة إلى الإيمان بالله وعبادته وحده وترك كل ما ابتدعه الناس من آلهة باطلة.

حمل هود عليه السلام لواء الدعوة إلى الله تعالى في زمانه، متوافقا مع الأساس الذي قامت عليه دعوة الأنبياء من قبله ومن بعده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

ولقد كان هود عليه السلام علما من سلسلة الأنبياء الذين تعاقبوا في تاريخ البشرية داعين إلى الله، سبقه فريق منهم واستمرت قافلة الإيمان من بعده.

قال تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف:٢١].

قال ابن الجوزي في تفسير هذه الآية: «قد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده بإنذار أممها ألا تعبدوا إلا الله والمعنى: لم يبعث رسولٌ قبل هود ولا بعده إلا بالأمر بعبادة الله وحده»[2].

وعلى هذه الحقيقة قامت دعوة هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف:٦٥]وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠﴾ [هود:٥٠].

وقال: ﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾ [الأحقاف:٢١].

وهي دعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له مصحوبة بدليلها وبرهانها، فقوله ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ جوهر الحقيقة التي هي مفتاح صلاح حالهم واستقامة أمرهم، ووقوفهم على الحق الذي ما سواه باطل وضلال، فإن العبادة لا تنبغي إلا له وحده، والبرهان على هذه الدعوى قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ فهي الحقيقة الواضحة التي لا ينكرها عاقل، ولا تخفى على ذي لب؛، فهل في الوجود إله تفرد بكل خصائص الألوهية من خلق وإيجاد ورعاية وإمداد وتدبير للكون كله سمائه وأرضه غير الله؟ وهل من معبود يصلح أن يعبد سواه؟

وهذه الدعوة مع برهانها تتضمن ترك كل ما يعبدون من آلهة مفتراة لا تحمل من مقومات الألوهية ومعانيها شيئا، وهي آلهة

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي ١/ ٧٢٩.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٠.

ظاهرة البطلان مخلوقة عاجزة، عابدها في ضلال مبين، متذلل لما لا يستحق التعظيم غافل عمن يستحقه. «﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تخافون عقاب الله بعبادتكم شيئا دونه، وهو الإله الذي لا إله لكم سواه»(١).

قال الإمام الرازي: «اعلم أن هودا عليه السلام دعا قومه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالدليل القاطع وذلك لأنه بين أن نعم الله عليهم كثيرة عظيمة وصريح العقل يدل على أنه ليس للأصنام شيء من النعم على الخلق لأنها جمادات والجماد لا قدرة له على شيء أصلا وظاهر أن العبادة نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام، وذلك يدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله وأن لا يعبدوا شيئا من الأصنام. ومقصود الله تعالى من ذكر أقسام إنعامه على العبيد هذه الحجة التي ذكرها ثم إن هودا عليه السلام لما ذكر هذه الحجة اليقينية لم يكن من القوم جواب عن هذه الحجة التي ذكرها إلا التمسك بطريقة التقليد فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠]»(٢).

وقد تولى هود عليه السلام كشف ضلالهم وضلال آبائهم وفرط جهالتهم في اتخاذ آلهة ظاهرة البطلان، وأنها مجرد أسماء فارغة مجردة من أي من صفات الألوهية وخصائصها حين قال: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف:٧١].

حيث أنكر عليهم مجادلتهم في آلهة ظاهرة البطلان تحمل أسماء اختلقوها هم وآباؤهم؛ «وذلك لأنهم كانوا يسمون الأصنام بالآلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدومٌ، وهذا صنيع الكافرين حيث سموا واحدًا منها بالعزى مشتقًا من العز والله ما أعطاه عزًا أصلًا، وسموا آخر منها باللات وليس له من الإلهية شيءٌ»(٣).

وقال ابن جزي:« أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها يعني الأصنام: أي تجادلونني في عبادة مسميات أسماء، ففي الكلام حذف، وأراد بقوله: سميتموها أنتم وآباؤكم جعلتم لها أسماء، فدل ذلك على أنها محدثة، فلا يصح أن تكون آلهة، أو سميتموها آلهة من غير دليل على أنها آلهة، فقولكم باطل. فالجدال على القول الأول في عبادتها، وعلى القول الثاني في تسميتها آلهة»(٤).

«وقوله: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ عبارةٌ عن خلو مذاهبهم عن الحجة والبينة»(٥).

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٢.
(٣) المصدر السابق ١٤/ ٣٠٣. بتصرف.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٩٣.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٣.

وقد جعل هود عليه السلام الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده منطلقا إلى عناصر العقيدة، وركيزة إلى منهج الحياة.

فمرة ربط الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده بالتقوى التي يراد بها الاستقامة على أمر الله بطاعته وطلب رضوانه، والحذر من معصيته المفضية إلى التعرض لغضبه وعقابه، فقال: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف:٦٥].

وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المؤمنون:٣٢].

ومرة أخرى قرنها بالتحذير من الكذب وجعلها مدخلا للزجر عن الافتراء الذي تقوم عليه حياتهم ومعتقدهم، وهو ادعاء ما لا علم لهم به، ولا دليل عليه مما هو ظاهر بطلانه ومخالفته للحق فقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود:٥٠].

قال الرازي في تفسير هذه الآية: «يعني: أنكم كاذبون في قولكم: إن هذه الأصنام تحسن عبادتها، أو في قولكم: إنها تستحق العبادة، وكيف لا يكون هذا كذبا وافتراء وهي جمادات لا حس لها ولا إدراك، والإنسان هو الذي ركبها وصورها فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيما لها»[1].

ومرة أخرى جعله مدخلا للدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر والتحذير من عواقبه، فقال: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف:٢١].

وجعلها كذلك المستند لإدراك مفهوم النبوة وقيمتها وفضلها وأهميتها في اعتمادها الطريق الوحيد للفوز برضوان الله فلا سبيل للنجاة إلا بطاعة نبيهم، فهو دليلهم الهادي إلى ما ينجيهم من سخط الله ويوصلهم إلى أبواب رضوانه ورحمته وهي الأساس الثاني من الأسس العقدية لدعوة هود عليه السلام، حيث قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾ [الشعراء: ١٢٥-١٢٦].

وهكذا يبرز هود عليه السلام أن عقيدة التوحيد هي الأساس الذي يبنى عليه كل صلاح.

٢. الإيمان بالنبوة ولوازمها.

لقد أرسل الله تعالى هودا رسولا إلى قومه كما أخبر عن ذلك في آيات عديدة منها تصريحا باسمه كما في سورتي الأعراف وهود، حيث قال: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف:٦٥].

(١) المصدر السابق ١٨/ ٣٦٣.

عطفا على قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٩].

أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا، وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود:٥٠]عطفا على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ [هود:٢٥].

ومنها بصفته من حيث صلته مع قومه كما في الأحقاف حيث قال: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ [الأحقاف:٢١].

وذكره في عداد الرسل كما في سورة فصلت، حيث قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [فصلت:١٣-١٤].

وجعل هود عليه السلام الدعوة إلى النبوة والرسالة ومقتضياتها من العناصر الأساسية في دعوته لقومه كما هي في دعوة كل نبي إعلانا للحقيقة التي اختاره الله تعالى لها، ولا بد من إعلامهم بهذه الحقيقة بصراحة ووضوح مع إقامة الحجة وإظهار البينة حتى يقع الإلزام بالاستجابة إليه وطاعته فيما يأمر وينهى، فما هو إلا مبلغ عن الله تعالى. وقد جاءت هذه الحقيقة واضحة في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الشعراء:١٢٤-١٢٧].

وفي موضع الرد على تسفيههم له يقول: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٧-٦٩].

وقد تضمنت هذه الآيات عدة أمور تتعلق بالرسالة والرسول؛ من حيث حقيقتها ودليلها وصفات الرسول والرد على شبهات القوم حولها.

فحقيقتها أنه رسول من رب العالمين، أي: الله أرسلني فأتلقى الوحي والعلم منه، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأؤديها إليكم كما أمرني أن أؤديها. وجاءت في سياق الرد على وصفهم له بالسفه فقال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استدراكٌ مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في الغاية القصوى من الرشد والأناة والصدق والأمانة، فإن الرسالة من جهة رب العالمين موجبةٌ لذلك حتمًا؛ كأنه قيل ليس بي شيء مما نسبتموني إليه ولكني في غاية ما يكون من الرشد والصدق[1] ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ وما علي إلا أن أبلغكم على أتم وجه رسالات ربي التي أوحاها إلي لما فيها من سوق الخير إليكم ودفع الشر عنكم.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٨.

«وتخصيص ربوبيته تعالى له عليه السلام بعد بيان عمومها للعالمين للإشعار بعلة الحكم الذي هو تبليغ رسالته تعالى إليهم فإن ربوبيته تعالى له من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته»[1].

«وجمع الرسالات مع أن رسالة الأنبياء واحدة رعاية لاختلاف أوقاتها، أو تنوع المعاني التي فيها، أو باعتبار حاملها، أي: أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس وشيث عليهما السلام»[2].

﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ «قال الأصمعي: الناصح: الخالص من العسل وغيره، وكل شيءٍ خلص فقد نصح»[3].

فمعنى: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ أي: أخلص النية لكم عن شوائب الفساد. وذلك أني أتحرى ما فيه صلاحكم بناء على أن النصح تحري ذلك قولا أو فعلا، وقيل: هو تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه، والمعنى هنا: أبلغكم أوامر الله تعالى ونواهيه بصدق وأمانة لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبدل، بل أبلغ ما أمرت كما أمرت»[4]. وأرغبكم في قبولها وأحذركم عقابه إن عصيتموه[5].

(١) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٩٠- ٣٩١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٤٧. بتصرف.
(٣) الصحاح، الجوهري ١/ ٤١١.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٤.
(٥) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٩٠-٣٩١.

وعبر عنها بصيغة اسم الفاعل وذلك؛ «أن القوم رموه بالسفاهة وهي من صفات النفس وصفات النفس ثابتة، يتولد عنها الخفة، والعجلة المذمومتين، وهي ضد الحلم، وهو معنى ثابت، يتولد عنه الأناة المحمودة، فأجابهم بصيغة الاسم الدال على ثبات النصح والاستمرار فيه»[6].

وجيء باللام هنا في: ﴿لَكُمْ﴾ لإفادة أنهم مخصوصون بالنصيحة، فالنصح لهم وليس لغيرهم؛ بمعنى: أن نفعه يعود عليهم لا عليه عليه السلام وهذا مبني على أن اللام للاختصاص لا زائدة[7].

واحتج على صدقه في رسالته بتجرده وقطع طمعه عن مكاسب الدنيا أو منازعتهم ومنافستهم على ما في أيديهم من متاعها، فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود:٥١].

ما من رسول إلا كانت غايته نزيهة سامية نبيلة، وكثير منهم واجه قومه بهذا القول، لأن شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحصها ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع، كما أن الدعوة إلى الله تعالى إذا كانت مطهرةً عن دنس الطمع، قوي تأثيرها في القلب.

(٦) درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي ٢/ ٦٠٥. بتصرف.
(٧) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٩١.

ثم وجه إليهم سؤالا إنكاريا بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾،داعيا إياهم إلى استعمال عقولهم لمعرفة المحق من المبطل والمصيب من المخطئ[1]. محذرًا من رد نصيحة من لا يطلب عليها أجرًا إلا من الله، وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك[2].

ثم دخل إلى إعماق نفوسهم ببراعة فائقة ليطارد فيها أسباب التكذيب والإعراض عن دعوته، كاشفا أن ذلك لا يقوم على مستند أو دليل تقوم به الحجة وإنما هو مجرد الاستبعاد والاستغراب الذي سرعان ما يتبدد أمام الفكر الحر والتدبر السليم لمن كان عاقلا فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٩].

أي: « استبعدتم وعجبتم أو أكذبتم وعجبتم أو أنكرتم وعجبتم ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: وحي وموعظة على رجل منكم أي: على لسان رجل منكم تعرفونه، ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه أو لا تعرفون لغته، وقيل: ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى: مع، أي: مع رجل منكم لأجل أن ينذركم به ﴿وَلِنَتَّقُوا﴾ ما يخالفه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بسبب ما يفيده الإنذار لكم والتقوى منكم من التعرض لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه عنكم»[3].أو على رجلٍ منكم أي: من جملتكم، أو من جنسكم وكانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤]»[4].

وهكذا جعل هود عليه السلام الدعوة إلى النبوة وإقامة البرهان على ثبوتها هي الخطوة الثانية للإصلاح.

٣. **الإيمان باليوم الآخر.**

الإيمان باليوم الآخر وما يترتب على ذلك من حسن الاستعداد له بالعمل الصالح واستثمار الحياة الدنيا فيما يحقق حسن الاستخلاف الذي ابتلي به الإنسان في دار البلاء وأنه سيحاسب على أعماله فيها، وأن الآخرة هي دار الجزاء هو الأساس الثالث لدعوة هود عليه السلام. وقد حذر هود عليه السلام قومه من عاقبة هذا اليوم واصفا إياه بأنه يوم عظيم.

قال تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف:٢١].

وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء:١٣٥].

فما كان منهم إلا التكذيب بهذا اليوم

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٣٨.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٠٢.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٤٧.
(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٢٢٩.

الذي وصفه الله تعالى بالقارعة فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ [الحاقة:٤].

ثم ذكر تكذيبهم الإجمالي المتضمن للتكذيب بكل ما جاء به هود عليه السلام من الإيمان بالله تعالى، وبنبوة هود عليه السلام المتضمنة للتكذيب بالرسل جميعا، ثم التكذيب باليوم الآخر. ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨﴾ [القمر:١٨].

وكيف جعلهم الله عبرة لكل مكذب بالرسل[١].

ومما يدل على تبليغ هود عليه السلام قومه حقيقة اليوم الآخر والتحذير من عواقبه ما جاء في سورة المؤمنون - عند من يرجح أنها في قوم هود- من تكذيبهم بلقاء الله وعرض شبههم التي تشبثوا بها في تبرير تكذيبهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٨].

فالقوم مكذبون بالآخرة مكذبون بالبعث بعد الموت مستبعدون أن يعودوا للحياة بعد أن يصيروا ترابا وعظاما. وقد تولى الإجابة المترفون من قومه كما هي سنتهم يحملون كبر تكذيب الرسل وتنفير العامة منهم؛ قائلين على سبيل الاستفهام الإنكاري التكذيبي:«أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابًا في قبوركم، وعظاما قد ذهبت لحوم أجسادكم، وبقيت عظامها أنكم مخرجون من قبوركم أحياء، كما كنتم قبل مماتكم؟»[٢].

وكل ذلك يدل على أن دعوة هود عليه السلام إلى الإيمان باليوم الآخر وما يجري فيه من حساب كانت واضحة بينة، كذب بها القوم وجحدوها كما فعل من قبلهم ومن بعدهم من الكافرين.

ومع الجهود المضنية المتواصلة التي بذلها هود عليه السلام واستفرغ لها حياته كلها بما أوتي من فصاحة وحجة لم يؤمن به إلا قليل، وقد استدل الزمخشري على أنه استجاب له بعض أشرافهم من نظم الآية في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف:٦٦].

فقال: «فإن قلت: لم وصف الملأ الذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به، منهم مرثد بن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٨٥.

(٢) المصدر السابق ١٩/ ٢٩.

سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن»[1].

وهكذا كان الإيمان باليوم الآخر وتهيئة النفوس لتحمل مسؤولية إعمالها وما يترتب على ذلك من الثواب والعقاب هي الركيزة الثالثة للإصلاح.

ثانيًا: الدعوة إلى الإصلاح:

تقدم الحديث عن مظاهر الفساد عند عاد من خلال قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١].

وهذه الآيات مع ما تحمله من الدلالة على ما بلغته عاد من الحضارة المادية، فإنها تكشف عن مظاهر الفساد وصورة الانحراف عن المنهج السليم في استثمار المنجزات الحضارية والقوة المادية التي يحققها الإنسان إذا هيأ الله تعالى له أسباب التمكين في الأرض.

كما تحمل لنا بيان منهج هود عليه السلام في الإصلاح، حيث لم تقتصر دعوته عليه السلام على القضايا الدينية العقدية، وإنما وجه نظره إلى تصويب قومه وتصحيح مسارهم في سائر مرافق الحياة، حيث لا فصل للدين عن الحياة في رسالات الأنبياء عليهم صلاة الله وسلامه.

«فينكر عليهم الترف في البنيان لمجرد التباهي بالمقدرة، والإعلان عن الثراء، والتكاثر والاستطالة في البناء من غير حاجة إليه، كما ينكر غرورهم بما يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا، وما يسخرونه فيها من القوى، كل ذلك مع غفلتهم عن تقوى الله ورقابته، والاستعداد للقائه، حيث قال منكرا عليهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾؟، وكان القصد من ذلك هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثم سماه عبثا. ولو كان لهداية المارة، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: «تعبثون» فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد، وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة»[2].

كما ينكر عليهم اتخاذ المصانع وهي صهاريج المياه مع وسائل جمعها وتصريفها وما تحققه من الرفاهية والنعيم والمتعة بما يجعل همهم منصرف إلى الدنيا مقبلين عليها بكل طاقاتهم مع كمال الغفلة عن الآخرة حيث تنصرف النفوس عن أي عمل خير مجرد عن مطامع الدنيا، أو التقصير فيه، أو محاسبة النفس على فعل الشر، حتى

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٠٩.

غلب عليهم الوهم بأنهم مخلدون.

كما أنكر عليهم طريقة استعمالهم لما تميزوا به من قوة فإذا بطشوا بطشوا بطشة الجبارين من غير رحمة ولا حق.

فهود عليه السلام لم ينكر على قومه المباني التي تكون مظنة النفع في الإيواء وعلامات لهداية المارة في مجاهيل الصحراء لإرشادهم. ولا اتخاذ المصانع التي تحقق جمع الماء عند نزول الأمطار وتخزينه واستثماره وقت الحاجة، فهو سر الحياة وحفظ الأنفس ووسيلة الخصب والنماء.

ولم ينكر عليهم امتلاك القوة الذي قد يكون أحيانا في موضعه مع من يستحقه، ولكنه ينكر عليهم تحويل مسار هذه المنافع في غير وجهها فلا تكون المباني والإكثار منها لغير حاجة إلا للعبث والإمعان في الغفلة والتفاخر والتباهي، كما ينكر اتخاذ المصانع التي تهيء لهم أسباب الترف والانغماس في التنعم، غافلين عن شكر الله على هذه النعم، ممعنين في الاغترار بالدنيا غافلين عن الآخرة، ليس لهم هدف ولا مطلب شريف، وكذلك استعمال القوة في غير موضعها دون رحمة أو حكمة.

بهذا يضع يده على العلة الحقيقية التي يعاني منها قومه من انطواء نفوسهم على السوء لا يعرفون إلا التفاخر لا يدركون للحياة هدفا ولا غاية، مع قسوة القلب في التعامل مع من هو أضعف منهم، فلا خيرهم مأمول ولا شرهم مأمون.

ثالثًا: التذكير بنعم الله:

لما ذكر هودٌ عليه السلام ما كان عليه قومه من مظاهر الفساد كاشفا لهم عن عللهم وأسقامهم واستخدامهم لنعم الله في غير موضعها قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: احذروا غضب الله في جحود نعمته وعدم شكره، وأطيعون لأبين لكم طريق مرضاته وسبيل زيادة نعمته وذلك توجيها لهم إلى الآخرة؛ وزجرا لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر، ثم وصل بهذا الوعظ ما يؤكد القبول؛ وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالإجمال أولًا ثم التفصيل ثانيًا، فأيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:١٣٢].

ثم فصلها من بعد بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء:١٣٣-١٣٤].

ثم حذر من عقاب الله في حال التقصير والإعراض فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء:١٣٥].

فبلغ في دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية. فكان جوابهم

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء:١٣٦].

حيث أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده. وعبروا عن قلة مبالاتهم بقولهم: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ ولم يكتفوا بالقول أوعظت أم لم تعظ مع أنه أخصر وظاهر المعنى واحدٌ، وذلك لما في تعبيرهم من زيادة إظهار اللامبالاة مع الاستخفاف بوعظه، فالمعنى ليس واحدًا، وبينهما فرق؛ «لأن المراد سواءٌ علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلًا من أهله، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أوعظت أم لم تعظ»[1].

والتذكير بالنعم من المداخل المهمة التي يقيم بها الأنبياء الحجة على الخلق في وجوب الشكر، وقد مضت سنة الله تعالى في الخلق أن يزيدهم بالشكر ويعاقبهم على الكفران بالنعم.

رابعًا: أخذ العبرة من مصير الأقوام المتقدمين:

مما يعطي الموعظة بلاغة في القول وتأثيرا في النفس تعزيزها بالأمثلة والنظائر، فلم تخل دعوة نبي من ضرب الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٨-٣٩].

والمعنى: «وكلًا ضربنا له الأمثال بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين؛ إنذارًا وإعذارًا، فلما أصروا أهلكوا كما قال: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ فتتناه تفتيتًا»[2]، وذلك لما فيه من الكشف عن سنن الله تعالى في الأمم؛ حيث جرت سنة الله تعالى بإرسال الرسل لإصلاح ما فسد من أحوال الأمم، وأيدهم بالآيات القاطعة بصدقهم، الكافية لإقامة الحجة على من عاندهم، فإن استجابوا اهتدوا وصلح حالهم، وإن كذبوا حل بهم ما حل بغيرهم من المكذبين مهما بلغت قوتهم أو طال أمدهم.

ولما كانت عاد من أوائل الأمم، ولم يذكر القرآن تصريحا قبلهم غير قوم نوح، كانت العبرة من قوم نوح أبلغ العبر؛ حيث حل بهم الطوفان الذي لم ينج منه إلا المؤمنون بنبيهم -أصحاب السفينة- فقال هود عليه السلام مذكرا بما حل بهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

ولا شك أنه يخاطبهم بما لهم به علم، ولا يخفى عليهم خبر قوم نوح.

وهذا التعبير يؤدي أغراضًا، منها تذكيرهم بما حل بقوم نوح من العذاب؛ إذ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٢٥.

عصوا رسولهم، وكفروا بربهم، فليتقوا الله أن يحل بهم نظير ما حل بهم من العقوبة، فيهلكهم ويبدل منهم غيرهم، سنته في قوم نوح قبلهم، على معصيتهم إياه وكفركم به»[1].

ومنها: التحديد الزماني من حيث إنهم جاءوا بعد قوم نوح أي: «فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم؛ لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها»[2]. ولا ينفك عن التحذير أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

خامسًا: الأمر بالاستغفار والتوبة:

قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود:٥٢].

ثم قصد استمالتهم وترغيبهم في الإيمان من باب الإصلاح الجذري لما هم عليه من الفساد، وذلك بالإقلاع عن الباطل والالتزام بالحق الذي عبر عنه بقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ آمنوا به ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ لما يترتب عليه من كثرة المطر وزيادة القوة، فقدم إليهم في باب الدعوة إلى الدين والترغيب فيه من خلال ما تصبوا إليه نفوسهم، وما كانت همتهم معقودة به؛ ليحصل في ضمنه الغرض الكلي والمقصود الأصلي وهو الفوز بالسعادات الأخروية[3].

وذلك من خلال التوجه إلى الله تعالى الذي بيده خزائن كل شيء بالاستغفار؛ وذلك بطلب المغفرة لما مضى من عبادة غيره، والتوبة إليه وذلك بالإقلاع عن ذلك فيما يستقبل، وذلك أن الدين يحقق لهم من المطالب أعز وأنفس مما يطلبونه بغير الدين، حيث يحقق لهم الكثرة والزيادة في الدنيا ويضمن لهم الفوز بالآخرة حين يقبل توبتهم ويغفر لهم.

وقد بين الإمام الرازي ما بين الاستغفار والتوبة من فروق فقال: «**الوجه الأول**: أن معنى قوله: وأن استغفروا اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم، ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة، فقال: ثم توبوا إليه لأن الداعي إلى التوبة والمحرض عليها هو طلب المغفرة، وهذا يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند الله إلا بإظهار التوبة، والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن المذنب معرضٌ عن طريق الحق، والمعرض والمتمادي في التباعد ما لم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه إلى المقصود بالذات، الذي هو محو الأوزار السالفة إلا بالإقلاع عن الأوزار المستقبلة فثبت أن الاستغفار مطلوبٌ بالذات، وأن التوبة مطلوبةٌ لكونها من متممات الاستغفار، وما

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥. بتصرف
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٣١.

كان آخرًا في الحصول كان أولًا في الطلب؛ فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة.

الوجه الثاني: في فائدة هذا الترتيب أن المراد: استغفروا من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه في المستأنف.

الوجه الثالث: وأن استغفروا من الشرك والمعاصي، ثم توبوا من الأعمال الباطلة.

الوجه الرابع: الاستغفار طلبٌ من الله؛ لإزالة ما لا ينبغي، والتوبة سعيٌ من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة؛ لأنها عملٌ يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه، والاستعانة بفضل الله تعالى مقدمةٌ على الاستعانة بسعي النفس»[1].

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ وكأنه إنما خصص هذين النوعين من السعادات الدنيوية من كثرة المطر وزيادة القوة؛ لأن القوم كانوا حراصًا على جميع الأموال من وجوه العمارة والزراعة، فقد كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حراصًا عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء. وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة، مفتخرين بها ومستحرزين بها من العدو، مهيبين في كل ناحية»[2].

وقدم الأول؛ لأنه أصل جميع النعم، والثاني أصل في الانتفاع بتلك النعم»[3].

وفي هذا الأسلوب يسلك هود عليه السلام مع قومه سبيلًا رشدًا؛ حيث يتجنب محاربة مشاعرهم ومهاجمة عواطفهم، فهو يعلم مدى حرصهم على المال واعتزازهم بقوتهم، كما أن هذه الغرائز ليست مذمومة لذاتها وإنما الخلل في طريقة تعاملهم معها، فلو واجههم بطريق الذم والإنكار؛ لأحدث ردة فعل تزيدهم نفورًا، ولكنه سلك سبيلًا يوجههم فيه إلى حسن استخدام هذه المطالب فيما يحقق منافعها ويجنب مفاسدها؛ ترغيبا بزيادتها والمحافظة عليها، بدلًا من سلبها والحرمان منها. وذلك من خلال الإصلاح الذي عبر عنه بالاستغفار والتوبة[4].

وخلاصة هذا المنهج النبوي لهود عليه السلام أنه يسير بخطوات واضحة على بصيرة؛ حيث يحدد أسس البناء السليم الذي يريد إعلاءه، وعلل الفساد التي يريد اجتثاثها، ويدخل إلى النفوس من جميع المداخل المؤثرة بقوة وأسلوب حكيم غير

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٣١٥.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٠٢.

(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٣١، بتصرف.

(٤) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ٢٢٤- ٢٢٥.

منفر، واضعًا البدائل وما يترتب عليها من الثمرات.

موقف عاد من نبيهم ورده عليهم

أولًا: التكذيب والإنكار:

لم تختلف عاد عن الأمم الذين كذبوا الرسل، حيث ذكرهم القرآن في عداد أمثالهم من المكذبين في مواطن عديدة، منها قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق:١٢-١٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان:٣٧-٣٩].

وفي سورة إبراهيم قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم:٩].

كما قرن القرآن ذكر عاد مع ثمود في مواطن عديدة مع ما تشابهتا به في جرم التكذيب فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ [الحاقة:٤].

وفي مواطن خص عادا بالذكر مبرزًا موقفها من نبيها هود عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾ [القمر:١٨].

وأن تكذيبها به تكذيب بالأنبياء جميعًا فقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٥].

ووصفها هنا بتكذيب المرسلين؛ لأن دعوى المرسلين واحدة وموقفهم منهم جميعًا لا يتغير. وأما صيغة التكذيب كما جاء في السورة نفسها: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء:١٣٦-١٤٠].

وفي سورة المؤمنون-عند من يرجح أنها في قوم هود- أنكروا النبوة بحجة البشرية والمثلية قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٨].

أي: يقول الملأ للعامة تنفيرًا من اتباع رسولهم بحجة أنه بشر يماثلهم في البشرية ولوازمها مما يستبعد أن يكون مرسلًا من الله: كيف يبعث الله إلينا رسولًا من جنسنا، ويخصه بالرسالة دوننا، وهو إنسان مثلنا، يأكل مما نأكل منه من الطعام، ويشرب مما نشرب، فليس له فضلٌ ولا مزية علينا؛ لأنه محتاجٌ إلى الطعام والشراب مثلنا؟! وكيف لم يرسل الله ملكا من عنده يبلغنا رسالته؟! وذلك إمعانا منهم في تكذيبه في دعوى الرسالة؛ لتوهمهم أن البشرية تنافي أن يكون صاحبها رسولًا من الله.

ثم يزيدون في تحذيرهم من اتباع الرسول البشر من عواقب لا تحمد، إذ يعدونهم بأمور مستبعد حصولها فيقولون: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾، أي: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾ فاتبعتموه، وقبلتم ما يقول وصدقتموه ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها القوم ﴿إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ أي: إنكم إذن لمغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة في الدنيا باتباعكم إياه[1] بالعمل ليوم مستبعد الوقوع تاركين العمل لنيل نصيبكم من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٩٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٥٢.

حاضر دنياكم.

ويظهر كذلك اقتراحهم نزول الملائكة من خلال قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت:١٤].

والمعنى: «لو شاء ربنا أن نوحده، ولا نعبد من دونه شيئًا غيره؛ لأنزل إلينا ملائكة من السماء رسلًا بما تدعوننا أنتم إليه، ولم يرسلكم وأنتم بشر مثلنا، ولكنه رضي عبادتنا وما نعبد؛ فلذلك لم يرسل إلينا بالنهي عن ذلك ملائكة. ثم عقبوا على ذلك بإعلانهم الكفر الصريح قائلين: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: قالوا لرسلهم: فإنا بالذي أرسلكم به ربكم إلينا جاحدون غير مصدقين به»[1].

وترتب على دعوى المنافاة بين البشرية والرسالة أن قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:٥٣].

أي: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لا يصدق مثلنا مثلك أبدا، فليس قولك حجة تحملنا على طاعتك.

فأجابهم هود عليه السلام بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٩].

أي: أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكرٌ أي: تذكير ووعظ من ربكم على لسان رجلٍ منكم أي: من جملتكم، أو من جنسكم[2]. مبينًا أنهم لا يملكون حجة على التكذيب ولا دليلًا معتبرًا على الإنكار إلا التعجب والاستبعاد.

وإنكار بشرية الرسول، وطلب نزول الملائكة أمور تتكرر عند المكذبين، وقد وقع الجواب عليه في مواطن كثيرة من القرآن منها قول الأنبياء: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:١١].

والمعنى: «أن الأنبياء سلموا أن الأمر كذلك، لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا المنصب منصبٌ يمن الله به على من يشاء من عباده، فإذا كان الأمر كذلك فقد سقطت هذه الشبهة»[3].

كما جاء على لسان نوح عليه السلام قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود:٢٨].

ردًّا على قول الملأ من قومه: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود:٢٧].

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٤٣.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٢٢٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٧٤.

أي: إن خفاء الأمر عليكم لا ينفيه ولا يبطله فلا يصلح حجة لرفضه.

وفي الرد على طلب نزول الملائكة يكشف القرآن عن أن هذا الطلب لا يعدو أن يكون مغالطة منهم لأنفسهم؛ حيث أورد شبهتهم وأجاب عنها بوجهين فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام:٨-٩].

أما الوجه الأول: ﴿لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: اي :بهلاكهم بعذاب الاستئصال إن كذبوا بعد ظهور آية باهرة. أما الثاني: فإذا نزل الملك فإما أن يظهر بصورته الملائكية وعندها ستزهق أرواحهم؛ لعدم تحمل حواسهم رؤية الملك، وإما أن يظهر بصورة بشر وعندها سيقع الالتباس فيقولوا: إن أنت إلا بشر[1].

ثانيًا: إنكار البينة:

لم يدخر هود عليه السلام جهدًا في دعوة قومه، سواء في محاورتهم العقلية من طرح الحجج والأدلة التي تهدف إلى الإقناع، وإزالة الشبهات التي يثيرونها أو الإتيان بالمعجزات التي تقطع دابر الشبهة وتقطع اللجاجة، إلا أن القوم أنكروا ظهور البينات وذلك مبالغة منهم في إنكار دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ حيث قابلوها بالجحود والاستكبار، وإنما يأتي الجحود من شدة الغفلة، ويكون الإصرار بعد معرفة الحقيقة ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود:٥٩].

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:٥٣] فجحدوا هودًا ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾، كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم[: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد:٢٧].

«ولم يشتهر منه معجزة ولكن العلماء قالوا: إظهار الدعوة مع أولئك الأقوام من غير مبالاة وتوان آية من الآيات»[2].

وكان ذلك الإنكار مكابرة منهم وجحودًا لنزول البينات، فقد جاءتهم البينات الظاهرة والمعجزات الباهرة، وإن لم يعين لنا بعضها[3] كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٨٦.

(٢) غرائب القرآن،النيسابوري ٤/ ٣٢.

(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢٧٩.

﴿كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة:٧٠].

وفي سورة إبراهيم ذكر عادًا مع أقوام آخرين فقال: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:٩].

«بالبينات: يعني بحججٍ ودلالاتٍ على حقيقة ما دعوهم إليه من معجزاتٍ»[(١)].

كل ذلك يؤكد تأييد الله تعالى لهود عليه السلام بالبينات، ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**)[(٢)].

ومعنى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: «ردوا عليهم قولهم وكذبوهم»[(٣)].

ثالثًا: الغفلة والغرور:

في كثير من المواضع التي فصل القرآن فيها الحديث عن قوم هود كشف عما كانوا عليه من الإيغال في الغفلة، والبعد عن الانتفاع بتحذيرات نبيهم عليه السلام، وقد جاءت هذه الآيات كاشفة عن صورة الغفلة ومظاهرها، مبينة أسبابها ودوافعها: أما أسبابها فيمكن أن نبينها بالنقاط الآتية:

١. **الإعجاب والغرور بما هم عليه من القوة.**

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت:١٥].

أي: فأما عادٌ فمنعهم من قبول الهدى استكبارهم. والاستكبار: المبالغة في الكبر، أي التعاظم واحتقار الناس وكان الحامل لهم على هذا الكبر قوتهم، التي عبروا عنها بقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ «فتعظموا فيها على أهلها من غير استحقاق، وغلب عليهم الشعور بأنه لا قوة تقف أمام قوتهم، وقد اعتادوا أن يستهينوا بالآخرين، ولا يبالوا بحقوقهم مما حملهم على البطش بلا رحمة.

فلما جاءهم هودٌ بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك؛ لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذبوا رسولهم. وبلغ بهم التمادي أنهم غفلوا عن قوة الله التي لا تقهر، والتي جاء نبيهم يذكرهم بها.

وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ استفهام إنكاري أي: إنه ينكر عليهم عدم علمهم بأن الله أشد منهم

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٣٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان بما نزل على نبينا، رقم ٢٣٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٣٤.

قوةً؛ حتى أعرضوا عن رسالة رسول ربهم، وعن إنذاره إياهم إعراض من لا يكترث بعظمة الله تعالى؛ حتى بلغ بهم الغرور أنهم اعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله! لأنهم لو حسبوا لعجزهم عن ذلك حسابه؛ لتوقعوا عذابه فلأقبلوا على النظر في دلائل صدق رسولهم[1].

٢. **الإيغال في الترف والتنعم.**

حيث كان حاملًا على التكذيب والانصراف عن سماع دعوة الأنبياء، أو التفكر فيها والانهماك في محاربتها وصرف الناس عنها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون:٣٣].

«فالترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب ومثل هؤلاء لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ودقة التدبير في أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة. هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض. فالخير لا يلقى جزاءه الكامل في الحياة الدنيا مثل هؤلاء لا يدركون هذه المعاني ولا يستدلون من أطوار الحياة الأولى على أطوارها الأخيرة ولا ينتبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار التي لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبلى كما يظنون»[2].

لقد كان هذا الحال شاغلًا لهم عن التفكير الجاد مستغرقًا منهم كامل جهدهم واهتماماتهم، حملهم على التباهي والتفاخر في البناء، والتوسع في المعايش، كما سبق بيانه من خلال الحديث عن مظاهر الانحراف والفساد من خلال قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء:١٢٨-١٢٩].

٣. **التقليد الأعمى.**

حيث هو من أكبر الصوارف عن قبول دعوة الإصلاح والتجديد حيث قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٧].

أي: «ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم، كانوا يدينونه ويعتقدونه، ونحن بهم مقتدون»[3].

٤. **تزيين الشيطان.**

قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٥٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٩، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١١٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٦٧.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٧.

﴿مُّسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨].

أي: حسن بوسوسته وإغوائه، فأراهم أعمالهم القبيحة حسنة فغرر بهم. فصدهم عن السبيل وهي طريق الإيمان بالله ورسله. وذلك أن الشيطان أتاهم من هذه الثغرة المكشوفة، وهي غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع[١].

﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: «معدودين بين الناس من البصراء العقلاء جدًا؛ لما فاقوهم به مما يعلمون من ظاهر الحياة الدنيا»[٢].

أما مظاهر هذه الغفلة وصورها فتظهر في كثير من أقوالهم وأعمالهم فمن الأقوال:

- ﴿قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الشعراء:١٣٦]
- ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف:٢٢]. وقد سبق بيان معاني هذه الآيات.
- ومنها ما جاء في سورة المؤمنون على لسان الملأ بعد أن بثوا ما في جعبتهم من الشبهات، عقبوا عليها بما يدل على غاية التكذيب والاستبعاد، الدال على انطماس القلوب، وشدة الإمعان في الغفلة والإعراض فقالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون:٣٦-٣٨].

«عن ابن عباس في قوله: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ يقول: بعيد بعيد»[٣].

«استبعد القوم بعثهم بعد الموت؛ إغفالًا منهم للتفكر في بدو أمرهم، وقدرة الله على إيجادهم، وأرادوا بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبدًا، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يعنون: ما الحياة إلا ما نحن فيه، وليس بعد الموت حياة»[٤].

أما الأفعال التي تدل على الإمعان في الغفلة فهي:

١. **الجحود وإنكار الآيات.**

الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥].

وقوله: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣].

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود:٥٩].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٥.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٤٣٧-٤٣٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٠.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٦٢.

٢. **التكذيب.**

الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[الشعراء:١٣٧-١٣٩].

٣. **عدم الانتفاع بأدوات الفهم والعلم.**

الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦].

٤. **البقاء في حمأة الجهل.**

كما وصفهم نبيهم عليه السلام بعد أن بذل أقصى ما في وسعه من التبليغ والبيان قال تعالى: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٰٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف:٢٣].

٥. **الاستمرار على ما هم عليه.**

وعدم الاكتراث بكل ما جاء به هود عليه السلام: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:٥٣].

فأكدوا عدم إيمانهم بالجملة الاسمية مع زيادة الباء، وتقديم المسند إليه المفيد لتقوية جوابهم، دلالة على أنهم لا يرجى منهم ذلك بوجه من الوجوه[١].

وقال: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٧٢].

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢٨٠.

رابعًا: الاتهام بالجنون والسفه والكذب:

وجهت عاد إلى نبيها هود عليه السلام عدة اتهامات أظهرها الاتهام بالسفه والجنون والكذب، وإليك بيان ذلك من خلال الآيات التي دلت عليه:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف:٦٦-٦٨].

بينت هذه الآيات الاتهام الأول وهو السفه بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾. والسفاهة: مصدر يعبر به عن الحال المهلهلة الرقيقة التي لا ثبات لها ولا جودة، والسفه في الثوب خفة نسجه[٢]، أي: «متمكنا في خفة عقل راسخًا فيها؛ حيث فارقت دين آبائك»[٣]. حيث «جعلوا قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف:٦٥] كلامًا لا يصدر إلا عن مختل العقل؛ لأنه من قول المحال عندهم»[٤].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعوى الرسالة، وظن

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١٧.
(٣) روح البيان ٣/ ١٨٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٠٢.

على بابه؛ لأنهم لم يكن عندهم إلا ظنون وتخرص[1].

«وفي تعبيرهم ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ جعلوا السفاهة ظرفا على طريق المجاز، أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها[2].

وفي أسلوب الإجابة الذي واجههم به، بطريق الحلم والإغضاء مع رميهم له بالسفاهة، وترك المقابلة بما قالوه مع علمه بما هم عليه من السفاهة أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويحلمون عليهم»[3].

واكتفى بنفي السفاهة عن نفسه بإثبات ما يضادها فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حيث يستحيل أن يرسل الله سفيهًا.

وفي مضمون الإجابة بقوله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾« أي: عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة، فما حقي أن أتهم. أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه»[4].

ولما كانت السفاهة من صفات النفس وهي ضد الحلم، وهو معنى ثابت يولد الخفة والعجلة المذمومتين، والحلم معنى ثابت يولد الأناة المحمودة، فقد أجابهم هود عليه السلام بما يتناسب مع قولهم وينفي عن نفسة ما رموه به بإثبات صفة ثابتة في النفس تبطلها[5].

فوصف نفسه بأن ناصح بصيغة اسم الفاعل الدال على الثبوت، ولم يقل أنصح بصيغة الفعل الدال على الحدوث. وفي هذه الإجابة ما يدل على بطلان قولهم من المقال، ومن واقع الحال، فإن الناصح الأمين لا يكون سفيهًا أبدًا وفي طريقة إجابته لهم بنفي السفه عن نفسه دون أن ينسبهم إلى السفاهة ولو كان حقًا، فلو قال: بل أنتم السفهاء لكان صادقًا ولكنه أعرض عن مواجهة السفهاء بأسلوبهم، وكان في غاية الرزانة حيث لم يستثيروه ولم يستفزوه؛ ليخرج عن حدود الحلم والحكمة والأدب، وهذا من أبلغ الأحوال الدالة على نزاهته من السفاهة.

وفي جوابه ترفق بهم وتجرد عن حظ نفسه لا يخفى، فلم يستثرهم بما يحملهم على النفور ولم يذمهم بوصفهم بالسفه انتصارًا لنفسه؛ كي لا يتحول الحوار إلى مساجلات شخصية.

أما الاتهام الثاني وهو الجنون فقد ورد في قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١٧.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١٧.
(٣) المصدر السابق بتصرف.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي ٢/ ٦٠٥-٦٠٦.

﴿ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[هود:٥٤].

أي: لا نجد قولًا نقوله فيك إلا أن بعض آلهتنا أصابك بمس من جنون أو خبل؛ لإنكارك لها؛ وصدك إيانا عن عبادتها، والمراد أن أصنامهم كافأته على سوء فعله بسوء الجزاء أي: إن ما تقوله لا يصدر إلا عمن أصيب بشيء اقتضى خروجه عن قانون العقل، فلا يعتد به؛ لأنه من قبيل الخرافات والهذيانات التي لا تصدر إلا عن المجانين فكيف نؤمن بك؟![1].

وأوردوا تعبيرهم بصيغة الحصر الموهم أنهم قد سبروا غور كل الاحتمالات المتوقعة التي تناسب حاله فما وجدوا أصوب ولا أمثل ولا أجدر في إصابة الحق من هذا القول.

الاتهام الثالث: الكذب حيث ادَّعوا أنه يفتري عليهم الكذب فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف:٢٢].

« الإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾، استعملوا الإفك في ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف من الحق إلى الباطل فاستعمل ذلك في الكذب»[2].

أي: أنهم أتهموا نبيهم بأنه يريد إزالتهم عن عبادة آلهتهم بالإفك. ولما عقبوا عليه بقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٢٢].

أضمروا الإصرار، أي: لن ننصرف عن آلهتنا، فأتنا بالعذاب الذي تتوعد به، ونزلوا الوعيد منزلة الوعد استهزاء وإمعانا في التكذيب. فقال لهم هود عليه السلام ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٣].

أي: لا علم لي بالوقت الذي عيَّنه الله لتعذيبكم، فلا معنى لاستعجالكم ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ [الأحقاف:٢٣].

وما علي إلا أن أبلغ رسالة ربي، فالأمر كله بيده وحده وما على الرسول إلا البلاغ، ثم استدرك عليه السلام فأعلن ما استقر في إدراكه من حالهم قائلا: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف:٢٣].

أي: أعلمكم علمًا هو كالرؤية ﴿قَوْمًا﴾ ليعم الحكم جميعهم ﴿تَجْهَلُونَ﴾ جهلًا متجددًا، لم يحدد مفعوله ليشمل كل ما يستدعي الأمر علمه من استبانة ضلالهم من إصرار على آلهة باطلة، وتكذيب لنبي صادق، واستعجال بعذاب مستحق دون الاحتراز منه، وجهل في ادعاء قدرة النبي على العذاب ونحوه، ولا تعلمون أن الرسل بعثوا مبلغين منذرين لا معذبين مقترحين[3].

(١) نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٤٩.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٩.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١١٥، نظم الدرر، البقاعي ١٨/ ١٦٧.

وأي جهل أعظم من الشرك بالله ونسبة نبي الله إلى الكذب. ومن ترك طريقة الاحتياط واستعجال ما فيه الهلاك[1].

ومن علائم جهلهم إصرارهم على طلب العذاب ولم تظهر لهم بينة على كونه كاذبًا، فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم[2].

خامسًا: التعجيز والتحدي:

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[هود:٥٣-٥٤].

جمعت هذه الآيات خلاصة موقف عاد من نبيهم هود عليه السلام وأجوبتهم له« ودلت على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت، ولا يلتفتون إلى النصح. ولا تلين شكيمتهم للرشد. وهذا يدل على جهل مفرط وبله متناه، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب»[3]، واشتملت إجابتهم على أربعة أمور:

الأول: الإنكار والجحود للبينات.

الثاني: الإصرار على ما هم عليه بالتمسك بآلهتهم.

الثالث: عدم الاكتراث بقوله حيث لا تقوم به الحجة عليهم وهو إنكار للنبوة.

الرابع: ادعوا أن لآلهتهم تأثيرا عليه، وأنه قد أصابه بعضها بسوء بلغ به حد الجنون. وهذا القول يتضمن التهديد والتخويف، فهذا فعل بعضها فكيف لو اجتمعت إذا لدكته دكا[4].

فكل ما بذله من جهد وبيان لا يبلغ حد الاعتبار في نظرهم، مع التهديد والتخويف من آلهتهم، وهذا يستدعي تصعيد المواجهة بما تقوم به الحجة وهي المعجزة التي تظهر بالتحدي وإثبات تفاهة آلهتهم وعجزها الذي دلت عليه الآيات الآتية: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود:٥٤-٥٧].

ففي هذه الآيات أجاب هود عليه السلام إجابة جامعة ترد على الأمور الأربعة التي أعلنوها، وتبدد كل أباطيلهم حيث أعلن نبي الله براءته من آلهتهم مشهدا لله تعالى،

(١) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٢٤.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٧/ ٤٠٥.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٠٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٩٨.

معلنا عن ذلك بصيغة الجملة الخبرية وهي في المعنى إنشائية بمعنى(اللهم اشهد) «لأن كل إنشاءٍ لا يظهر أثره في الخلق من شأنه أن يقع بصيغة الخبر، لما في الخبر من قصد إعلام السامع بما يضمره المتكلم»[1]. ومشهدا لهم على هذه البراءة استخفافا بهم وبآلهتهم، وإعلاما لهم بعجزها، مؤيدا ذلك بالتحدي الذي يقيم البرهان على إثبات عجزها وقصورها فضلا عن أن تعتريه بسوء، وذلك بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي: «كيدوا لي، وخذوني بما تستطيعون من كيد، والكيد: إعمال الحيلة، وإحكام التدبير، لما يراد من الأمور ويستعمل الكيد غالبا في الشر، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: أي: لا تتوانوا في إعمال كيدكم لي، والمبادرة به»[2].

وفي قوله: ﴿جَمِيعًا﴾رد على قولهم: ﴿بَعْضُ﴾أي: أنه أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعًا دون بعضٍ منها مبالغة في التحدي[3].

وجعل هذا التحدي ردًا عمليًا على قولهم ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وعلى قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ «ووجه الخطاب لقومه لئلا يكون خطابه لما لا يعقل ولا يسمع، فأمر قومه بأن يكيدوه. وأدخل في ضمير الكائدين أصنامهم مجاراةً لاعتقادهم واستقصاءً لتعجيزهم، أي: أنتم وأصنامكم، كما دل عليه التفريع على البراءة من أصنامهم»[4].

والنتيجة الحتمية لهذا التحدي الذي أثبت جدواه بعجزهم وعجز آلهتهم عن إيذائه بأي شيء دليل على صدقه وحجية قوله وأنه نبي مرسل يلزمهم ترك آلهتهم طاعة له، وهي دليل على عظمة إلهه الذي حماه وأيده ورد الكيد عنه في مثل هذا الوسط مع كثرتهم وقوتهم وشدة بأسهم، وحرصهم على تكذيبه وهو فرد ليس له نصير إلا مولاه الذي يدعو إليه.

سادسًا: استعجال العذاب:

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف:٧٠].

وقال: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف:٢٢].

وذلك أنهم طلبوا الإتيان بالعذاب إمعانا في التكذيب وتماديا في الضلال، واستهانة بوعد نبيهم عليه السلام، ويدل على أنهم

(١) المصدر السابق ١٢/ ٩٩.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٦/ ١١٥٦.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢١٨.
(٤) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٢/ ١٠٠.

كانوا يستبعدون العذاب ويكذبون بكل ما جاءهم به نبيهم قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء:١٣٨].

وبينما هم غارقون في غفلتم متمادون في تكذيبهم إذ جاءتهم بوادر العذاب بصورة يتوهمون فيها البشارة بالغيث بعد سنين من القحط ليكون وقع العذاب أنكى وأشد. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف:٢٤].

قال ابن كثير: «كان أول ما ابتدأهم العذاب، أنهم كانوا ممحلين مسنتين[(١)]، فطلبوا السقيا فرأوا عارضًا في السماء وظنوه سقيا رحمةٍ، فإذا هو سقيا عذابٍ[(٢)].

أي: فلما رأوا العذاب في صورة سحاب يوهم بالغيث، حسبوه سحابًا يمطرهم، وكان المطر قد أبطأ عنهم، فلما رأوه عارضًا ظاهرا في عرض السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ فرحوا واستبشروا. وكان قد جاءهم من وادٍ جرت العادة أن يأتي منه الغيث[(٣)].

قيل لهم ردًّا على توهمهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ يعني: من العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وذلك استبعادًا منهم لوقوعه، ثم بين ماهيته فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم وصف تلك الريح بأوصاف مفزعة كما سيأتي بيانه.

أخرج الإمام أحمد عن الحارث بن يزيد البكري، قال: (خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمررت بالربذة، فإذا عجوزٌ من بني تميم منقطعٌ بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجةً، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها، فأتيت المدينة فإذا المسجد غاصٌ بأهله، وإذا رايةٌ سوداء تخفق، وبلالٌ متقلدٌ السيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا، قال: فجلست، قال: فدخل منزله -أو قال: رحله- فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت، فسلمت فقال: (هل كان بينكم وبين بني تميم شيءٌ؟) قال: فقلت: نعم، قال: وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوزٍ من بني تميم منقطعٌ بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزًا، فاجعل الدهناء، فحميت العجوز،

(١) ممحلين: أصابهم المحل وهو الشدة وانقطاع المطر.
انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٨١٧.
ومسنتين من السنة، أي: أسنتت أرضهم: لم يصبها مطر فلم تنبت.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٦٧.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٠٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٦.

واستوفزت، قالت: يا رسول الله، فإلى أين تضطر مضرك؟ قال: قلت: إنما مثلي، ما قال الأول: معزاةٌ حملت حتفها، حملت هذه، ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا أعوذ بالله، ورسوله أن أكون كوافد عادٍ قال: (هيه، وما وافد عادٍ؟) وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه، قلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم، يقال له: قيلٌ، فمر بمعاوية بن بكرٍ، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج جبال تهامة، فنادى: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريضٍ فأداويه، ولا إلى أسيرٍ فأفاديه، اللهم اسق عادًا ما كنت مسقيه، فمرت به سحاباتٌ سودٌ فنودي منها: اختر، فأومأ إلى سحابةٍ منها سوداء، فنودي منها: خذها رمادًا رمددًا ولا تبق من عادٍ أحدًا، قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح، إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا، قال أبو وائلٍ: وصدق قال: (فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم، قالوا: لا تكن كوافد عادٍ)[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال: (اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به) قالت: (وإذا غيبت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر. فإذا أمطرت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عادٍ: (فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا)[2].

فكان صلى الله عليه وسلم أشد الناس خشية لله ويعلم من حاله ومقاله كيف يحذر المرء من غضبه ليكون حذرا من الخروج عن طاعته، غير آمن من مكره أمنا يدفع إلى الاستهانة بحق الله قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩].

[انظر: عاد: موقفهم من رسولهم ومعجزاته]

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٥٩٥٣.
قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٨٦: وهو غريبٌ جدًا من غرائب الحديث وأفراده.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، رقم ٨٩٩.

عاقبة القوم ومصيرهم

أولًا: المقدمات التي سبقت العذاب:

جاءت المقدمات التي سبقت العذاب بصور من التحذير والوعيد والإمهال ثم حلول الرجس والغضب؛ ففي مشهد من المشاهد الأخيرة من الحوار بين هود عليه السلام وقومه يقول: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود:٥٧].

محذرًا لهم من النهاية التي لا تدع منهم أحدا لهوانهم على الله واقتداره عليهم. أي: إن تتولوا أهلككم الله، ويستبدل قومًا غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه. ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ بتوليكم وإعراضكم، إنما تضرون أنفسكم، وذلك أن إهلاككم لا ينقص من ملكه شيئًا؛ لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء[1].

ثم إنه عليه السلام ذكر لهم وعيدًا مجددًا فقال: ﴿فَانتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف:٧١].

أي: فانتظروا ما يحصل لكم من عبادة هذه الأصنام إني معكم من المنتظرين.

وهو أمر يتضمن الوعيد والإمهال[2]، وقال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج:٤٤].

«أي: أمهلتهم إلى الوقت المعلوم عندي ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتهم»[3]، وهذه سنة إلهية ماضية في المكذبين يمهلهم إلى آجالهم، ثم يأخذهم بجميع ما صدر منهم.

وذكر استحقاقهم للعذاب وحلول النقمة من الله عليهم بجحودهم لوحدانية الله ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ [الأعراف:٧٠].

استبعدوا توحيد الله مع اعترافهم بربوبيته، ولذلك قال لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:٧١].

أي: حق عليكم ووجب عذاب من ربكم وغضب.

أي: «أنه تعالى أخبره في ذلك الوقت بنزول العذاب عليهم فلما حدث الإعلام في ذلك الوقت لا جرم قال هودٌ في ذلك الوقت: وقع عليكم من ربكم رجسٌ وغضبٌ، أو أنه جعل التوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع. ونظيره قولك لمن طلب منك شيئًا قد كان ذلك بمعنى أنه سيكون ونظيره قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١].

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٥٠٩٩، بتصرف.

(٢) انظر: المصدر السابق ٩/ ١٩٠.

(٣) المصدر السابق ١٤/ ١٠٧.

بمعنى: سيأتي أمر الله»[1].

«الرجس لا يمكن أن يكون المراد منه العذاب؛ لأن المراد من الغضب العذاب فلو حملنا الرجس عليه لزم التكرير وأيضًا الرجس ضد التزكية والتطهير. قال تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

وقال في صفة أهل البيت: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

والمراد التطهر من العقائد الباطلة والأفعال المذمومة وإذا كان كذلك وجب أن يكون الرجس عبارةً عن العقائد الباطلة والأفعال المذمومة»[2]. ويدخل فيه: الرين على القلب بزيادة الكفر[3].

«وحاصل الكلام في الآية: أن القوم لما أصروا على التقليد وعدم الانقياد للدليل زادهم الله كفرًا وهو المراد من قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ ثم خصهم بمزيد الغضب وهو قوله: ﴿وَغَضَبٌ﴾»[4] وهو ما يوجب العذاب.

ثانيًا: صورة العذاب:

تحدثت الآيات القرآنية عن العذاب الذي حل بقوم عاد بأساليب متنوعة وصيغ متعددة، تعرض لحقيقته وصورته من عدة وجوه لا تعارض بينها؛ فأحيانا يذكر العذاب بإجمال كما في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الشعراء:١٣٩].

فرتب على التكذيب إهلاكهم دون أن يفصل في بيان طريقة الإهلاك الذي تولت بيانه سور أخرى.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص:١٤] «فوجب أو لزم وثبت أن أعاقبهم»[5].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر:٦].

إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر:١٣].

أي: أفرغ عليهم أشد أنواع العذاب. فالصب يعبر به عن الكثرة، والسوط يعبر به عن الشدة.

وقال كذلك على سبيل الإجمال: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم:٥٠].

وقال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج:٤٤].

وأحيانًا يذكر ما حل بهم على جهة التفصيل كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٦٠.

﴿نَحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٦].

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر:١٨-٢٠].

وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة:٦-٨].

فبين في هذه الآيات أن العذاب الذي حل بهم كان بالريح الشديدة المهلكة التي وصفها بأوصاف عديدة تدل على ما جمعت من خصائص العنف والنكال.

فمرة وصفها بالعقيم «وأصل العقم: اليبس المانع من قبول الأثر، والريح العقيم: وهي التي لا تلقح سحابا ولا شجرا وهي التي لا تقبل أثر الخير، وإذا لم تقبل ولم تتأثر لم تعط ولم تؤثر»(١). وهي التي لا رأفة فيها ولا رحمة(٢).

كما وصفها بصرصر وهذا اللفظ يجمع ثلاثة معاني هي الصوت والبرد(٣) والعزم(٤).

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٧٩.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ١٣٤.
(٣) العين، الفراهيدي ٧/ ٨٢.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٧٦.

فيكون وصفها أنها «الريح العاصفة الشديدة الهبوب التي يسمع لهبوبها صوتٌ شديدٌ، وعلى هذا، فالصرصر من الصرة التي هي الصيحة المزعجة. ولا يمنع أن يكون بردها واصلا درجة الإحراق مأخوذ من قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران:١١٧]. أي: فيها بردٌ شديدٌ محرقٌ»(٥).

ووصفها كذلك بالعاتية، وأصلها من «عتا يعتو عتوًا وعتيًا: استكبر وجاوز الحد»(٦) الريح العاتية: «أي: مبالغة في الشدة»(٧) أو «شديدة الهبوب»(٨).

أما دوامها على هذه الحال بما جمعت من أوصاف الشدة فقد استمرت طيلة أيام وصفت في سورة فصلت بأنها ﴿نَحِسَاتٍ﴾ دون ذكر عددها، وقال المفسرون في معنى ﴿نَحِسَاتٍ﴾ قولين أحدهما: الشديدة البرد والآخر: أنها المشؤومة(٩).

ولا تعارض بين المعنيين، فإن شدة البرد سبب من أسباب الشؤم. وفي سورة القمر وصف النحس بأنه مستمر للدلالة على تواصله بلا توقف ولا فتور طوال هذه المدة، مما يزيد الأمر شؤما، وفي سورة الحاقة ذكر عددها ووصفها بالحسوم فقال: ﴿سَخَّرَهَا

(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٦.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٧.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٠.
(٨) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٩.
(٩) المخصص، ابن سيده ٢/ ٣٩٨.

﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ قال الفراء: «الحسوم: التباع إذا تتابع الشيء فلم ينقطع أوله عن آخره»(١).

وقال الزجاج: «حسوما أي: تحسمهم حسوما أي: تذهبهم وتفنيهم»(٢).

وقال ابن كثير:«كوامل متتابعاتٍ»(٣).

أما عن فعل هذه الريح وآثارها فقال عن فعلها بالأشياء عموما: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف:٢٥].

أي: تهلك كل شيء من الحيوان والناس، أي: تخرب كل شيءٍ مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها. أو من بلادهم، مما من شأنه الخراب قال ابن عباسٍ: أي كل شيءٍ بعثت إليه. والتدمير: الهلاك. وكذلك الدمار ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ومعناه أن هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب والقرانات(٤) بل هو أمر حدث ابتداءً بقدرة الله تعالى لأجل تعذيبكم(٥).

أما عما فعلته هذه الريح بالناس على وجه الخصوص فقال: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر:٢٠].

أي: كأنهم «أصول نخل منقلع عن مغارسه»(٦).

وتنزعهم نزعا حيث كانت «تقلعهم عن أماكنهم وكانوا يصطفون آخذًا بعضهم بأيدي بعض ويتداخلون في الشعاب ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم»(٧).

فتصرعهم وتسقطهم على الأرض فأصبحوا مع طول قاماتهم وضخامة أجسامهم كأنهم أسافل نخل منقلع من أصله، قد سقط على الأرض. قال ابن كثير: «فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه حتى تبينه من بين جثته»(٨).

فهذا صنيعها بأجساد القوم المسلطة عليهم في بداية هبوبها.

ومع هبوب الريح بصفاتها العاتية من برد شديد وجفاف ودوام لهذه المدة الطويلة جديرة بأن تفعل بأجسادهم فعلها حتى تركتهم في نهاية أمرهم كأعجاز نخل خاوية، أي: بالية نخرة(٩).

قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ

(١) انظر: معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٨٠، تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٩٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢١٤.
(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٩.
(٤) أي: اقتران الثريا بالبروج السماوية وما كان يعتقده الجاهليون من تأثير ذلك على الأحداث.
انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٩-٢٣٠.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٧/ ٤٠٧.
(٦) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٠٣.
(٧) المصدر السابق.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٣٥.
(٩) غريب القرآن، ابن قتيبة ص٤١٢.

﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة:٧].

فتشبيههم بأعجاز نخل منقعر تصف حالهم عند بداية العذاب وهبوب الريح، وتشبيههم بأعجاز نخل خاوية عند نهاية الأمر وانتهاء المدة حيث بليت أجسادهم ونخرت.

وهكذا جاءت هذه الريح بهذه الأوصاف على القوم وهم غارقون في غفلتهم يعرضون عضلاتهم ويتباهون بقوتهم. فأتاهم المصرع المناسب لهذا العجب المرذول الغافل عن قوة الله وقدرته ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت:١٦].

إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحس عليهم. وإنه الخزي في الحياة الدنيا. الخزي اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد ذلك في الدنيا وليسوا بمتروكين في الآخرة: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٦][1].

وفي وسط تلك الرياح العاتية المدمرة كان هود عليه السلام ومن معه في رعاية الله بأمن وسلام ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هود:٥٨].

قال ابن إسحاق: «واعتزل هودٌ عليه السلام -فيما ذكر لي- في حظيرةٍ هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود، وتلذ الأنفس، وإنها لتمر على عادٍ بالظعن فيما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة»[2].

وقال تعالى في وصف العذاب الذي حل بعاد وثمود ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت:١٣].

قال ابن قتيبة: الصعق: الموت.

قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]. أي: ميتا[3].

وقال الراغب: «الصاعقة والصاقعة يتقاربان، وهما الهدة الكبيرة، إلا أن الصقع يقال في الأجسام الأرضية، والصعق في الأجسام العلوية. قال بعض أهل اللغة: الصاعقة على ثلاثة أوجه:

- الموت، كقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨]. وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النساء:١٥٣].
- العذاب، كقوله: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣].
- النار، كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١١٨. بتصرف.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٦-١٣٧.

(٣) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص٢٧١.

﴿بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:١٣]»[١].

ثم قال «وما ذكروه فهو أشياء حاصلة من الصاعقة، فإن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منها نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها»[٢].

وما ذهب إليه يتفق مع قول المبرد بأن الصاعقة «الثائرة المهلكة لأي شيءٍ كان»[٣].

وفي خصوص قوم عاد فإن الصاعقة التي حلت هي الثائرة المهلكة ذات الصوت الشديد كما قال الشنقيطي: «وهذه الريح الصرصر هي المراد بصاعقة عادٍ»[٤].

ثالثًا: آثار العذاب:

وعقب القرآن الكريم على ما حل بعاد من العذاب بعبارات متنوعة تحمل الكثير من العبر والدلالات فمنها قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٥].

أي: «تدمر ما من شأنه أن تدمره الريح من الإنسان والحيوان والديار»[٥]. فأصبحوا «لا ترى من بقايا عادٍ أشياء إلا مساكنهم»[٦].

(١) المفردات، الراغب ص٤٨٤- ٤٨٥.
(٢) المفردات، الراغب ص ٤٨٥.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٥١.
(٤) أضواء البيان ٧/ ١٧.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٥٠.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٥.

وهذا لأن السكان هلكوا، وهلك كل شيء يملكونه فقيل: أصبحوا وقد غطتهم الريح بالرمل فلا يرون[٧].

ولم يبق ظاهرًا على وجه الأرض إلا مساكنهم أطلالا خربة تدل على من كان فيها، وتحمل في مظهرها ما يدل على ما حل بالقوم من العذاب. ليكونوا عبرة لكل معتبر. وتعقب الآيات على مشهد الدمار والخراب الذي حل بهذه الأمة التي بلغت من القوة والتمكين ووسائل الإدراك ما لم ينفعها أو يدفع عنها العذاب إذ كانت تجحد بآيات الله ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٧٢].

وهنا بين أن العذاب الذي حل بهم كان شاملا لهم جميعا لم يبق لهم بقية ولا عقب حيث استؤصلوا عن آخرهم والدابر: الآخر. والمعنى هنا قطع خلفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقيةٌ. والمراد به الاستئصال، «قال قطربٌ: يعني أنهم استؤصلوا وأهلكوا»[٨].

(٧) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١١.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٢٧.

وقوله سبحانه: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود:٦٠].

فلما قضى الأمر أتبعوا باللعنة «أي: أردفوا لعنة تلحقهم، وتصاحبهم في الدنيا وفي الآخرة. واللعنة: هي الإبعاد، والطرد عن الرحمة»(١).

«قال السدي: ما بعث نبيٌّ بعد عادٍ إلا لعنوا على لسانه»(٢).

وخذلتهم آلهتهم التي كانوا يدعون لها التأثير فلم تغن عنهم شيئا، بل حل بهم ونزل الذي كانوا منه يسخرون وبه يستهزئون، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وهكذا حل العذاب بعاد على وفق سنة الله تعالى في المكذبين بعد استيفاء البيان والحجة والإمهال، فأتاهم على أشد الصور حيث بدأ على صورة غمام يوهم بنزول الغيث وكانوا مستبشرين فاستبشروا، ولكن يا لهول المفاجأة فإذا هي ريح ذات صوت مرعب وهبوب شديد مع برد وجفاف محرق تدمر كل شيء، تتبعتهم في منازلهم وأماكن احتمائهم فنزعتهم نزعا وصرعتهم صرعا كأنهم أصول نخل قلع من مغرسه وألقتهم جثثا بلا رؤوس، ودامت عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة بلا فتور حتى نخرت أجسادهم وبليت فأصبحت كأعجاز نخل خاوية، ولم تدع منهم أحدا فقد استأصلتهم عن آخرهم.

وجعل الله في إهلاكهم آية فقابلهم بجنس ما كان سبب طغيانهم، حيث جاءهم بقوة عاتية لا طاقة لهم بمقاومتها أو الوقوف في وجهها، وهم الذين كانوا يتبجحون بقوتهم ويقولون من أشد منا قوة؟!

موضوعات ذات صلة:

ثمود، شعيب عليه السلام، صالح عليه السلام، عاد، النبوة، نوح عليه السلام

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٥١١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣١.